بونزي

الثعلب الجوعان

بسم الله الرحمن الرحيم

د طارق البكري

بونزي
الثعلب الجوعان

رواية للفتيان

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل الرقمي والمسرع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار الكتبي.

دار الكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 00971655122262 فاكس: 00971655122264 ص.ب: 3309
Email:almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

١ ـ مطْر.. مَطَر.. مَطَرٌ..

تِكْ.. تَكْ.. تُكْ..

تِكْ.. تَكْ.. تُكْ..

مَطَرٌ مَطَرٌ مَطَر.. وَابِلٌ مِنَ المَطَر..

يَمْلأُ الغَابَةَ بِمَاءٍ مُنهَمِر..

يَغْمرُ السُّهول..

يَغْسِلُ العُشْبَ وَذَوائِبَ الشَّجَر..

المَطرُ غَزِيرٌ.. وَالجَوُّ زَمْهَرير..

الأَرْضُ مُوحِلَةٌ.. والرِّيحُ بَارِدَة..

الرَّعْدُ يُدَمْدِمُ.. وَالبَرْقُ يَسْطَعُ ويُزمْجِرُ.. يَخْطفُ الأَبْصَارَ والأَسْمَاعَ مَعاً.

وَهذِهِ الرِّيحُ بِهَزيزِهَا تَعْصُفُ وتُهَمْهِم. . تَهُزُّ بِعُنْفٍ كُلَّ ما يُصادِفُها بِغَيرِ وَجَل.

والرِّيحُ بِرِياحِها وأَرْوَاحِها وأَرْياحِها. . تَتَفَنَّنُ ـ بِمُفْرَدِها وجُمُوعِها ـ بِضَرْبِ فُروعِ الأَشْجَارِ، بَعْضها بِبَعْضٍ؛ غُصْناً بِغُصْنٍ. . عُوداً بِعُودٍ. . وعُنُقاً بِعُنقٍ. . فَتَتَرَنَّحُ وَتَنْحَنِي حتَّى تَكَاد تُلامِسُ أَدِيمَ الأَرْضِ بِأُنُوفِها؛ فَيُشْبِهُ ذَلِكَ كلُّهُ عَزْفاً غِنائِياً راقِصاً مُتَنَاسِقاً، لِجَوْقَةٍ مُوسِيقِيَّةٍ بَارِعَةٍ، وكورساً غِنائِيّاً صَدّاحاً.

والرِّيْـحُ. . أَطْلَقَتْ حَمَاسَتَها بِأَعْلَى نَفَسٍ؛ تُحذِّرُ الخَائِضِينَ في أَحْشَائِهَا مَعَ ظُلُمَاتِ اللَّيلِ؛ مِنْ مَأزِقِ الوُقوعِ في مُسْتَنْقَعاتِ المَطَرِ المُتوَحِّشَةِ؛ فَتَبْلَعُهُم.

وَهَذا مَا يَجْعَلُ المَسيرَ الآنَ ضَرْباً مِنَ جُنونٍ، وَنَوعاً مِنْ خَطَرٍ، أوْ مُجَازَفةً كُبْرَى لَمْ تُحْسَبْ عَوَاقِبُها. وأَخْطَرُ الأَفْعَالِ؛ عَدْوٌ بِلا هَدَفٍ.

فَمَنْ يَخْطُو بِلا تَفَكُّرٍ وَتدَبُّرٍ وَنَظَرٍ؛ يَرْمِي نَفْسَهُ فِي

عَواقِبَ غَيرِ مَحْمُودَةٍ، لَا تُعرَفُ مَرامِيها، وَلَا تُحسَبُ نَتائِجُها وَلا مَفَاعِيلُها.

وَبالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ مَا يُحيطُ بِهَذهِ الأُمْسِيَةِ مِنْ أَخْطارٍ وَأَنْواءٍ وَأَفْخَاخٍ؛ فَإِنَّ بُونزِي قرَّرَ الخُروجَ مِنْ وِجَارِهِ - أَيْ بَيتِهِ، والجَمْعُ أَوْجِرَةٌ ووُجُرٌ - غَيرَ عَابىءٍ بِلَيلَتِهِ هَذِهِ، البَارِدَةِ المَطِيرَةِ الخَطِيرةِ، وفي بِدايَةِ خُطُواتِ رِحْلَتِهِ المُجَازِفَةِ بَحْثاً عَنْ طَعامٍ غَنَّى طَرَباً نشِيدَ المَطَرِ

مَطَرْ مَطَرْ مَطَر، بِالنِّعْمَةِ انْهَمَر
بِالعُشْبِ وَالثَّمَر
تَهَلَّلي يا أَرْضَنا السَّمْراءْ،
واسْتَقْبِلي هَدِيَّةَ السَّماءْ
مَطَرْ مَطَرْ مَطَرْ
غَداً يَمُوجُ حَقْلُنا سَنابِلا، غَداً تُغَنِّي
أَرْضُنا جَداوِلا

سَـــنَـــابِـــلاً سَـــنَـــابِـــلا

جَـــــــدَاوِلاً جَـــــــدَاوِلا

تَسْقي بِها العِطاشَ يا مَطَر، تُحيي

بِـــهـــا الـــنُّـــفـــوسَ يـــا مَـــطَـــر

تَـهَـلَّـلـي يـا أَرضَـنـا الـسَّـمْـراء

وَعـــانِـــقـــي هَـــدِيَّـــةَ الـــسَّـــمـــاءْ

بِالنِّعْمَةِ انْهَمَرْ، بِالعُشْبِ وَالثَّمَر

يـا مَـرْحَـبـاً يـا حُـلْـوُ يـا مَـطَـر !

(شعر: سليمان العيسى)

كانَ بُونْزي يَحْسَبُ أنَّ لَيلتَهُ سُتكونُ سَهلةً مُيَسَّرةً، رغمَ مَا تبدُو عَليها مِنْ بِداياتٍ صَعْبةٍ منكَرةٍ، فَمَضَى غَيْرَ عَابِئٍ، رافِعَ الرَّأسِ، واثِقَ الخُطَى، فِيْمَا كَانَ الجوُّ عَاصِفاً عَابِساً مُكْفَهِرَّ القَسَمَاتِ، والسَّماءُ تَحْجُبُها سَحائبُ راعداتٌ، لا تَبْدُو نُجُومُها ولا يَظْهَرُ قَمَرُها.

وفي الأَمْثالِ: «رُبَّ صَلَفٍ تحتَ الرَّاعِدَةِ»، لِمَنْ يُكثِرُ الكَلامَ وَلا خَيرَ عِندَهُ، ومِثْلُهُ: «كَثِيرُ الرَّعْدِ قَليلُ المَاءِ»، وَجَمْعُ رَاعِدٍ رَوَاعِدُ، وَمِنْهَا «ذاتُ الرَّوَاعِد»، أي المُصِيبةُ والدّاهِيَةُ، و«دَواهِي الدَّهْرِ»؛ مَا يُصِيبُ الخَلائقَ مِنْ عَظِيمِ نُوَبِهِ (أي مَصَائِبِهِ).

أمَّا رَوَاعِدُ بُونزي اليومَ فلَيسَتْ كَتِلكَ الأَمْثالِ التي يُحِبُّ أنْ يَسْمَعَها ويَرويَها، فَهِي رَعْدٌ وَقَصْفٌ ورُعْبٌ!وسُحُبٌ تَضرِبُ بـ «المَلآن».

وهو عادةً لا يَخْرُجُ فِي مِثلِ هَذا الوَقتِ مِنَ الليل، وَلاسيَّما فِي مِثلِ هَذِهِ الأَجْواءِ الشَّتويةِ القاسيَةِ.

لكنَّ قرصةَ الجُوعِ أشدُّ إيلاماً من قَرصةِ البردِ، خَاصَّة أنَّ بُونزي لَا يَتأثرُ كَثيراً بِبَرْدِ شِتاءٍ أوْ بِصَقيعِهِ، فَجَسدُه النَّحيلُ الصَّغيرُ تكسوهُ كتلةُ شعرٍ كثَّة مِنْ كلِّ جَانبٍ، وإذا بلغتِ البُرودةُ مَداهَا؛ لَوَّى أَطْرافَهُ حَولَ نَفسِهِ، مُسْتَعيناً بِذَيلِهِ الطَّويلِ الجَميلِ.

أمَّا اللّوى ـ وَهُوَ الجُوعُ الشَّديدُ ـ فَلا مَفَرَّ منهُ، وإنِ التَوَى وَتلَوَّى، وَلَوَّى شَعْرَهُ المَنكوشَ المَنْفوشَ المَبْلولَ.

ولعلَّ أفضَلَ أمَاسِيِّ الثَّعالِبِ لَيَالِي الصَّيفِ المُقْمِرَةُ، حَيثُ يَحْلو لَهَا السَّهرُ والغِنَاءُ. وأيُّ غِناءٍ يكونُ صَدحُ الثعالبِ حينَ ترفعُ صَوتَها فتطربُ! لاسيَّما إذا كانتِ السَّماءُ صَافيةً، وَالقَمَرُ بَدْراً. لَكِنَّ بُونزي اليَومَ جوعَانُ إلى أَقْصَى حدٍّ، والجوعُ كمَا يقولونَ «كَافِرٌ».

ومَضَى بُونْزِي في طَرِيقِهِ وَاثِقاً بِنَصْرٍ وَشِيكٍ عَلَى الجُوعِ، يَلتَفِتُ هُنا وَهُنَاكَ، عَسَى يَعثرُ عَلى بُغْيَتِه، وَكُلَّمَا مَضَتْ دَقيقةٌ؛ كانَ جُوْعُهُ يَشْتَدُّ أكْثَر.

كانَ يَظُنُّ فِي البِدَايَةِ أنَّ الأمْرَ سَهلٌ مَيْسُورٌ، مِثْل قِطْعَةٍ مِنْ حَلْوَى، والظَّنُّ لا يُغني عنِ الجُوعِ شَيئاً، ورغمَ ما شاهَدَهُ مِنْ صُعوبةِ بِدايةِ الرِّحْلَةِ، فَإنَّهُ أصَرَّ

عَلَى مُواصَلَةِ المَسيرِ، إيماناً مِنْهُ بأنَّ «مَنْ سَارَ عَلَى الدَّربِ وَصَل».

كانَتْ عَزيمتُهُ القَويَّةُ تَدفعُهُ إلى الأمامِ.

وبَقِيَ عَلى هَذِهِ الحَالِ لبَعضِ الوَقتِ، حتَّى بدَأتْ قواهُ تَضعُفُ، فِيمَا بَدأَ البردُ يَتَسلَّلُ إلى دَاخِلِ فِرَائِهِ الجَميلِ.

٢ ـ قصصُ الثَّعالبِ الطَّرِيفَةِ

بُونْزي جَوعانُ غَضْبانُ، والغابةُ مُقْفِرَةٌ عابِسَةٌ فَارِغةٌ إِلَّا مِنَ الرِّيحِ البَارِدَةِ العَاصِفَةِ، لكنَّهُ لا يُريدُ العَودَةَ إلى وِجَارِهِ الخَالي مِنْ لَذيذِ الطَّعَامِ، وَحَتَّى مِنْ غَيْرِ اللَّذِيذِ مِمَّا يُؤكَلُ، وَلَا حَتى بَقَايَا طَعامٍ.

والبرْدُ فِي طَبيعَتِهِ يَرفعُ حَرارةَ الجُوعِ.

عِلْماً أَنَّهُ مِنَ النَّادِرِ أنْ تجدَ ثَعْلَباً فَتِيّاً يَافِعاً يَشْعُرُ بالشَّبَعِ التَّامِ، فهو جائِعٌ نَهِمٌ عَلَى الدَّوَامِ، عَلَى مَرِّ الثَّوَانِي وَالدَّقائقِ وَالسَّاعَاتِ وَالأيَّامِ، وَلَا يَزيدُهُ الأكْلُ إِلَّا رَهَقاً؛ أيْ ظُلْماً وَجَهْلاً وَخِفَّةَ عَقلٍ، أوْ ـ رُبَّما ـ نَزَقاً.

قَدْ وَردَ في الكُتبِ القَديمةِ أنَّ البَطْنَ وِعاءٌ، ومَا مُلِءَ وِعَاءٌ أكثَر شَرّاً وإِضْراراً مِنَ البَطْنِ.

ورَغمَ عِلمِ بُونْزِي بِذَلِكَ؛ فَإنَّ الشَّرَهَ رَفيقُهُ الدَّائِمُ، وَالشَّرِهُ هُوَ مَنْ يَأْكُلُ بِنَهَمٍ وَجَشَعٍ، شَديد الشَّهْوةِ للطَّعامِ وَالحِرصِ عَليهِ، فَلا يَشْبَعُ شَبَعاً مُبْرَماً.

كذلكَ هوَ بُونزي، فحتَّى وإنْ كانتْ مِعدَتُهُ عامِرَةً بلَذائذِ الطَّعامِ، فإنَّهُ يَظَلُّ يَأْكُلُ ويأْكُلُ وَلو لُقَيماتٍ مِنْ لَحْمٍ شَهِيٍّ أو مِنْ فاكِهَةٍ مُفَضَّلَةٍ عندَهُ، مِثْل التُّوتِ والعِنَبِ والتُّفاحِ والخَوخِ؛ فكيفَ إذا ما كانتْ كمَا هِي عَلَيهِ الآن؛ فارِغةً خَاوِيَةً؟!

وقَديماً قَالُوا: «اثنانِ لا يَشْبَعانِ: طالبُ عِلْمٍ وطالِبُ مَالٍ».

والثَّعالِبُ عادةً؛ تَطلُبُ بِلا انْقِطاعٍ، وتجوعُ بلا اصْطِناعٍ، جَائِعَةٌ على الدَّوامِ، في كلِّ زاوِيَةٍ ومَكانٍ، وعَصْرٍ وَآنٍ.

وَمَضَى الثَّعْلبُ بونزي في طريقِهِ بَحْثاً عَمَّا يُؤدَمُ، لكنْ؛ هَيهاتَ هَيهاتَ! فَأَيّ طَعامٍ يُرتَجَى فِي مثلِ هَذِهِ

اللَّيلَةِ العَاصِفَةِ! فَكَّرَ مَلِيًّا بَاحِثاً عمَّا يُلْهِيهِ عَنْ جُوعِهِ؛ فَوَقَعَتْ فِي خَاطِرِهِ قِصَصُ الثَّعالِبِ وأَسَاطِيرُها.

ولِلثَّعالِبِ قِصَصٌ طَرِيفَةٌ وَفِيرةٌ غَزِيرةٌ، مِنْهَا مَا رَوتْهُ الأَسَاطِيرُ، وَمِنْها مَا نَسَجَتْهُ حِكَايَاتُ الجدَّاتِ قَبْلَ النَّومِ، أو سَطَّرَتْهُ كُتبُ المؤَلِّفينَ الأَقْدَمينَ وَالمُعَاصِرينَ، أوْ مَا نَظَمَتْهُ أَلْسِنَةُ الشُّعَراءِ الغَابِرينَ والمُعَاصِرينَ.

ومِنْ جَمِيلِ مَا أُنشِدَ عَبْرَ العُصُور، نَشِيدُ الشَّاعِرِ المصْريِّ الشَّهِير أَحْمَدَ شَوْقِي، المُلَقَّبِ بِأَمِيرِ الشُّعَرَاءِ؛ يَحكِي قِصَّةَ ثَعْلَبٍ وَدِيكٍ. وَمِمَّا جَاءَ فيه:

بَـرزَ الـثَّـعْـلَـبُ يَـوْمـاً
فِـي ثِـيَـابِ الـوَاعِـظِـيـنـا
يَـا عِـبـادَ اللهِ تـوبُـوا
فـهـوَ كَـهْـفُ الـتَّـائِـبِـيـنـا
وَاطْـلـبُـوا الـدِّيـكَ يُـؤَذِّن
لِـصَـلاةِ الـصُّـبْـحِ فِـيـنـا

فَـأجَـابَ الـدِّيـكُ عُـذْراً
يَـا أضَـلَّ الـمُـهْـتَـديـنـا
مُـخْـطِـئٌ مَـنْ ظَـنَّ يَـومـاً
أنَّ لـلـثَّـعـلَـبِ دِيـنـا

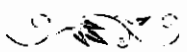

٣ ـ الثعالب والذئاب

إنَّ قِصَصَ الثَّعالِبِ لا تَبزُّ غالِباً قِصَصَ الذِّئابِ في المَكْرِ والخَديعَةِ ولا تَتَفَوَّقُ عَلَيها، فَلِلذِّئابِ مَكانَةٌ رَفِيعةٌ، ودَرَجَةٌ عَالِيَةٌ مَرْمُوقَةٌ، في تاريخِ الاحْتِيَال.

وَمَنْ مِنْ سَاكِني الأَرْضِ؛ في الغاباتِ والمُدنِ والقُرى والبَلْداتِ والتِّلالِ والجِبالِ والوِدْيانِ والسُّهولِ... مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ وَحَيَوانٍ، لَمْ يَسْمَعْ بِقِصَّةِ ذِئبِ لَيلَى؟! وَلَعلَّهُ أَكْثرُ الذِّئابِ شُهرةً على الإطْلاقِ مِنْ أيِّ بَطَلِ قِصَّةٍ أُخْرَى مِنْ قِصَصِ الثَّعالِبِ أوِ الذِّئَابِ عَلَى حَدٍّ سَوَاء.

وذِئْبُ لَيلَى يَبْدو ـ لِلْوَهْلَةِ الأُولى ـ ذَكِيّاً مَاهِراً، بَالِغَ الدَّهاءِ، لكنَّهُ يَفْشَلُ في النِّهايَةِ، لأنَّ الطِّيبةَ تَغلِبُ كلَّ دَهَاءٍ.

وَهَلْ هُنَالِكَ أَفْضَلُ مِنَ القَلْبِ الطَّيِّبِ، وَمِنَ الرُّوحِ العَطِرَةِ؟!

والذِّئْبُ عَلى العُمُومِ يُشْبِهُ الثَّعلَبَ، لكِنَّ حَجْمَهُ أَكْبرُ بقليلٍ، أَمَّا مَكرُه فَكَثيرٌ.

وهو مِنْ أَنْواعِ العَشِيرَةِ الكَلْبيَّةِ، يُشْبِهُ كَلْباً كَبِيراً طَويلَ الأَطْرافِ، مُتَدَلِّي الذَّنَبِ إلى العَقبِ، جِسْمُهُ نَحيلٌ، وَبَطْنُهُ ضَامِرٌ، وَقَوائِمُهُ مُسْتَقيمةٌ وَالأَماميَّتانِ مِنها مُتقارِبتانِ، ورَأْسُهُ غَليظٌ.

أَمَّا الخَطْمُ - وهو الأَنْفُ - فَمَمْدودٌ مُدَبَّبٌ، والجَبْهَةُ عَريضَةٌ، وَالأُذُنُ صَغيرَةٌ نِسْبِيّاً وَمُنْتَصِبَةٌ، وَالعُيونُ مُنْحَرِفَةُ الوَضْعِ، وَيَتَفاوَتُ فِراءُ الذِّئْبِ تَفَاوُتاً بَيِّناً بِالنِّسْبَةِ لِمُخْتَلَفِ فُصولِ السَّنَةِ وَمُخْتَلَفِ المَواطِنِ.

وَيَغْلِبُ عَلَى الذِّئبِ لَونٌ مِنْ أَعْلَى رَمادِيٌّ بُنِّيٌّ مُصْفَرٌّ، يُمَازِجُهُ سَوادٌ، ومِنْ أَسْفَلِ البَطْنِ أَبْيَضُ رَمَادِيٌّ.

وَجَاءَ ذِكْرُ الذِّئْبِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ ثَلاثَ مرَّاتٍ، وتَحْديداً في سُورةِ يُوسُفَ نَبيِّ اللهِ عليه السلام.

ووَصَفَ الإنْجِيلُ النَّبِيَّ عِيسَى عليه السلام بِالرَّاعي الصَّالِحِ، والرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذلُ نَفْسَهُ في سَبيلِ الخِرافِ؛ أَمَّا الأَجِيرُ، وهو لَيسَ بِراعٍ، والخِرافُ لَيْسَتْ له، فَإذا رَأَى الذِّئْبَ مُقْبِلاً تَرَكَ الخِرافَ وهَرَبَ، فيَخْطفُ الذِّئْبُ الخِرافَ ويُبَدِّدُها، وذلِكَ لأَنَّهُ أَجيرٌ لا يُبالي بِالخِرافِ.

أَمَّا صِفَةُ الذِّئْبِ فَتَدُلُّ عَلَى الظُّلْمِ وَالطُّغْيَانِ والوَحْشَةِ والجُوعِ وَالشَّجَاعَةِ الطّائِشَةِ. ويُقالُ لِمَنْ يُرْمَزُ لَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ (كالذِّئْبِ)، أَي: فِي الجَسَارةِ، أَوْ فِي عَدَمِ الشَّبَعِ.

وَجَاءَ فِي الأَمْثالِ:

«أَظْلَمُ مِنْ ذِئْبٍ»، و«أَغْدَرُ مِنَ الذِّئْبِ»، و«مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ»، و«رَمَاهُ اللهُ بِدَاءِ الذِّئْبِ»،

والأَخِيرُ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلهَلاكِ والمَوْتِ، وكَذلِكَ لِلجَائِعِ الذي لا يَشْبَعُ.

ويُقالُ أَيْضاً: «إِنْ كُنْتَ ذِئْباً أَكَلْتَ مَعَهُ، وإِنْ لَمْ تَكُنْ ذِئْباً أَكَلَتْكَ الذِّئابُ».

وفِي كِتَابِ (الأَذْكِياء) لـ (أَبي الفَرَجِ بْنِ الجَوْزِيِّ) أَنَّ أَسَداً وَثَعْلَباً وَذِئْباً اصْطَحَبوا، فَخَرجُوا يَتَصَيَّدونَ، فَصادُوا حِمَاراً وَظَبياً وأَرْنباً، فَقالَ الأَسَدُ لِلذِّئْبِ: اقْسِمْ بَيْنَنا صَيْدَنا.

فَقالَ: الحِمارُ لَكَ، والأَرْنَبُ لأبي مُعَاوِيَةَ ـ ويَعْني الثَّعْلَبَ ـ والظَّبيُ لي.

فَخَبَطَهُ الأَسَدُ، فَأَطاحَ رَأْسَهُ.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلى الثَّعْلَبِ، وَقالَ: قَاتَلَهُ اللهُ مَا أَجْهَلَهُ بِالقِسْمَةِ! هاتِ أَنْتَ يَا أَبا مُعاوِيَةَ.

فَقَالَ الثَّعْلَبُ: يَا أَبَا الحَارِثِ، الأَمْرُ أَوْضَحُ مِنْ

ذَلِكَ؛ الحِمارُ لِغَدائِكَ، والظَّبيُ لِعَشَائِكَ، والأَرْنَبُ فِيما بَيْنَ ذَلِكَ.

فَقالَ لَهُ الأَسَدُ سَعيداً راضِياً بِالقِسْمَةِ: قاتَلَكَ اللهُ مَا أَقْضاكَ! مَنْ عَلَّمَكَ هَذِهِ الأَقْضِيَةَ؟

فَقَالَ: رَأْسُ الذِّئْبِ الطّائِحُ عَنْ جثَّتِهِ.

وَقالَ شَوقِي يَحْكِي قِصَّةً طَرِيفَةً عَنِ الذِّئبِ يَوماً:

كـــانَ ذِئـــبٌ يَـــتَـــغَـــذّى
فَـجَـرَت فـي الـزَّورِ عَـظْـمَـه
لـــزمَـــتـــهُ الـــصَّـــومَ حَـــتَّـــى
فَـجَـعَـتْ فـي الـرُّوحِ جِـسْـمَـه
فَـأَتَـى الـثَّـعْـلَـبُ يَـبْـكِـي
وَيُـــعَـــزِّي فـــيـــهِ أُمَّـــه
قـــالَ يـــا أُمَّ صَـــدِيـــقـــي
بِـــيَ مِـــمّـــا بِـــكِ غُـــمَّـــه
فَـاصْـبِـري صَـبْـراً جَـمِـيـلاً
إِنَّ صَـــبْـــرَ الأُمِّ رَحْـــمَـــه

فَـأَجـابَـتْ يـابْـنَ أُخْـتِـي
كُـلُّ مـا قَـدْ قُـلْـتَ حِـكْـمَـه
مَـا بِـيَ الـغـالـي وَلَـكِـن
قَـولُـهُـم مـاتَ بِـعَـظْـمـه
لَـيـتَـهُ مِـثْـلَ أَخِـيـهِ
مَـاتَ مَـحْـسـوداً بِـتُـخْـمَـه

وبالرَّغْمِ مِنْ أنَّ الثَّعالبَ أَقَلُّ مَكْراً مِنَ الذِّئابِ، أَوْ عَلَى الأَقَلِّ هَذا الَّذي يُعْتَقَدُ أَحْياناً، فَإِنَّهُمْ يَعْتَادُونَ المَكْرَ وَيُتْقِنونَهُ بِالخِبرةِ والمُمَارَسَةِ والتَّجْرِبَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهمْ لا يَتبَاهون ـ عَادَةً ـ بِشِدَّةِ مَكْرِهِم وَلا يَغْتَرُّونَ، وَيُفَضِّلُونَ المَكْرَ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ المُتَطَفِّلينَ، كَحَالِ المَكَرَةِ المَهَرَةِ، الذينَ يُديرونَ شَمْعَتَهمْ لِتَقِيدَ ـ كَما جاءَ في الأَمْثالِ ـ.

ومِنْ قِصَصِ الثَّعالبِ قِصَّةٌ شَهِيرةٌ مِنْ حِكاياتِ (كَلِيلَة ودِمْنَة)؛ تَقولُ:

إِنَّ ثَعلباً أَتَى (أَجَمَةً) ـ وهي الشَّجَرُ المُلْتَفُّ الكَثِيفُ ـ فَسَمِعَ صَوتاً عَظِيماً يَتَرَدَّدُ بِالمَكانِ، وَعِنْدَمَا تَوَجَّهَ نَحوَهُ وَجَدَهُ طَبْلاً ضَخْماً مُعَلَّقاً عَلَى غُصْنِ شَجَرةٍ، والأَغْصَانُ تَضْرِبُهُ مَعَ حَرَكَةِ الرِّيحِ بِغَيرِ رَحْمَةٍ.

ظَنَّ مُتَوهِّماً أَنَّ الطَّبْلَ ضَخْمٌ مِنْ كَثْرةِ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ، لَكنَّهُ اكْتَشَفَ بَعْدَ جُهْدٍ بِشقِّهِ؛ أَنَّ الطَّبْلَ فارِغٌ، والفَراغُ عَادَةً يُثِيرُ ضَوْضَاءَ أَكْبَر، فَقَالَ: «لَعَلَّ أَفْشَلَ الأَشْياءِ: أجْهَرُهَا صَوْتاً وأَعْظَمُها جُثَّةً».

ويُحْكَى أَيْضاً أَنَّ أَسَداً أَمَرَ خَادِمَهُ الثَّعْلَبَ أنْ يُحضِرَ لَهُ الطَّعَامَ، فَذَهَبَ الثَّعْلَبُ يَبْحَثُ، حَتَّى صَادَفَ حِماراً كَبيرَ الجِسْمِ صَغِيرَ العَقْلِ، فَأَخْبَرهُ كَاذِباً أَنَّ الأَسَدَ يَبْحَثُ عَنْ مَلِكٍ غَيرِهِ لِلْغَابَةِ، وَأَنَّهُ خَيرُ مَنْ يَسْتحِقُّ المَنصِبَ.

فَاغْترَّ الحِمَارُ بِنَفسِهِ، والمَغرورُ طَرِيقُهُ مَحْفوفٌ بِالمَخَاطِرِ وَالمَهالِكِ، فَأَسْرَعَ بِهِ جَهْلُهُ، يُهَرولُ نَحوَ

عَرينِ الأَسَدِ الَّذي عَاجَلَهُ بِضَرْبَةٍ قَطَعَتْ أُذُنَيهِ، فَنَهَقَ وَفرَّ مَذْعُوراً.

فَلَحِقَ بِهِ الثَّعْلَبُ لائِماً مُعاتِباً عَلى تَضْييعِهِ هَذِهِ الفُرْصَةَ الثَّمينَةَ التي لا تَتَكَرَّرُ بِسُهولَةٍ وَبَساطَةٍ، ولافِتاً إلى أَنَّهُ لَمْ يَحْظَ بِهَذِهِ «المَكْرُمَةِ العَالِيةِ والحظْوةِ الرَّفِيعة» أيُّ حَيَوانٍ آخَرَ مِنْ حَيواناتِ الغابَةِ، فَمَنْ يَحصلُ عَلَيها فَهوَ بِالتَّأْكيدِ أَهْلٌ لَهَا، وَمَنْ أَكْثَرُ مِنَ الحَمِيرِ نَبَاهَةً وَذَكَاءً، وأَنْتَ طَلِيعَتُهُمْ، ورائِدُهُمْ، وزِينَتُهُمْ؟

ثُمَّ قالَ لَهُ شَارِحاً بِمَكْرِهِ المَعْهودِ وَخِداعِهِ الَّذي لا يَنْضبُ:

يا مَولَاي الحَكِيمَ، يا سَيِّدَ الحَمِيرِ وَقَائِدَهُمْ؛ أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الأَجْدَى ومِنَ الحِكْمَةِ أَنْ تَطيرَ أُذُنَاكَ الكَبيرتانِ، حَتَّى يَضَعَ مَولايَ الأَسَدُ التَّاجَ عَلَى رَأْسِكَ؟ وَهَذا أَبْلَغُ مَا قَضَى بِهِ سَيِّدُنا الأَسَدُ؛ لأَنَّ

الأُذُنَينِ الكَبيرتَينِ تَأْخُذُ مَكانَ التَّاجِ، وتُعِيقُ ثَبَاتَهُ عَلَى رَأْسِكَ!

فَقالَ الحِمارُ وهو يَهُزُّ رَأْسَهُ مُبدِياً كامِلَ الاقْتِنَاعِ بِهذا الكَلامِ، مُثْنِياً عَلَى ما سَمِعَ مِنْ حَديثِ الثَّعْلَبِ:

إِنَّ هَذا لَرَأْيٌ سَديدٌ لا غُبارَ عَلَيه، هيَّا بِنَا فَوراً إلى عَرينِ الأَسدِ أَيُّها الثَّعْلَبُ الذَّكيُّ النَّبيهُ.

ومَا أنْ عَادَ مُعْتَذِراً؛ حَتَّى قَفزَ هارِباً مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ أنْ ضَرَبَهُ الأَسَدُ فَقَطَعَ ذَيلَهُ.

لَحِقَ الثَّعلَبُ بالحِمارِ مِنْ جَديدٍ قائِلاً:

لَقَدْ أتْعَبْتَني ـ يَا مَولايَ الحِمَار ـ وأَوْجَعْتَ قَلْبِي؟ أَلَم يَئِنِ الأوَانُ لكي تَتَوَقَّفَ عَنْ هَذِهِ الأَفْعالِ الصِّبْيَانِيَّة؟ أَلَمْ تَسْتَفِدْ ممَّا دَرَسْناهُ في كُتُبِ الأَقْدَمينَ، وتُؤْمِنْ بِأَنَّ عَلَى مَنْ يُرِيدُ المُلْكَ أَنْ يَتنَازَلَ عَنْ بَعْضِ شُؤونِهِ الخاصَّةِ، ويَقْبَلَ بِالتَّضْحيَةِ مِنْ أَجْلِ الآخَرينَ، فالتَّضْحِيةُ أَسَاسُ المُلْكِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكونَ لِلغابَةِ

مَلِكاً بِغَيرِ تَضْحِيَةٍ مِنْهُ وِفِداءٍ في سَبيلِ مَصْلَحَةِ الجَميعِ. . فَلَا تَنْظُرِ الآنَ إلى نَفْسِكَ، بلِ انْظُرْ إلى مَا سَتُحَقِّقُهُ لِغَيرِكَ مِنْ فَوائِدَ تُرْتَجَى في قَابِلِ الأيَّامِ. فَمَا أَجْمَلَ الغَابَةَ التي يَتَولَّى حِمَارُنا الحَكِيمُ قيادَتَها!

فَأَجَابَهُ الحِمَارُ مُتَحَسِّراً: يَا لَمُصيبتي؛ يا وَيْلِي. لقد فَقَدْتُ أُذُنيَّ وَذَيْلِي، وأَنْتَ مَا زِلتَ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُريدُ أَنْ يُجلِسَني عَلى كُرسيِّ المُلكِ؟ كَيْفَ يُعْقَلُ هَذا أَيُّها الجَاهِلُ المَغْرُورُ!

تَبَسَّمَ الثَّعْلَبُ مِنْ قَوْلِهِ وَسَأَلَهُ بِلَهْجَةٍ ظاهِرُها حُبٌّ وباطِنُها خُبْثٌ، مُظْهِراً اهْتِمامَهُ الكَاذِبَ المُتَصَنَّعَ بِبالِغَةِ الدَّمَاثَةِ: وَكَيفَ سَتَجْلِسُ عَلَى كُرسِيِّ المُلكِ وَذَيلُكَ تَحتَكَ؟! فَكَّرَ الحِمَارُ هُنَيْهَةً، يُبْدِي النَّبَاهَةَ وَهُوَ أَعْيَا مِنْ أَنْ يَمْتَلِكَها.

ثُمَّ قالَ: صَحِيحٌ. . صَحِيحٌ! وَحَقٌّ حَقٌّ ما تَقُول، ثُمَّ تَابَعَ كَلامَهُ قائِلاً: كَمْ أَنَا غبيٌّ!

فَقاطَعَهُ الثَّعْلَبُ: حاشا للهِ يا سيِّدي! اعْذُرْ جَهْلي ونَزَقِي وَطَيشِي. إنَّ مَقامَكَ عالٍ وكَبيرٌ عِنْدِي.

فَقَالَ الحِمَارُ مُتَحَسِّراً: كَيفَ غَفَلْتُ عَنْ هَذا الرأيِ الصَّائبِ؟ واللهِ إنَّكَ لمُسْتشَارٌ حَكِيمٌ نَبيهٌ سَدِيدُ الرَأيِ بَليغُ الفَهْمِ بَعِيدُ النَّظَرِ، لِذا فَإنَّ أَوَّلَ قَرارَاتي، سَتَكونُ تَعْيينُكَ مُسْتشاريَ الشَّخْصِيَّ، والنَّاطِقُ الوَحِيدُ بِاسْمِي، فَورَ تَسَلُّمي سدَّة الحُكْمِ وكُرسِيِّ المُلْكِ، فأنْتَ لن تَكونَ خادماً بَعْدَ اليَومِ، لَنْ أَجِدَ أَشَدَّ مِنْكَ إخْلاصاً وَنَبَاهَةً وَذكَاءً، وَعِلْماً نافِعاً. هيَّا بِنا حَالاً إلى مَلِكِنا المُظَفَّرِ، أيُّها العَاقلُ الذَّكيُّ الحَكيمُ.

لكنَّ الأَسَدَ هَذِهِ المرَّةَ لَمْ يُمْهِلْهُ، وَقَتَلَهُ عَلَى الفَورِ، ثمَّ أَمَرَ الثَّعْلَبَ بِسَلْخِ جِلْدِهِ وَتَقْطِيعِهِ. وما أنْ شَرَعَ الأَسَدُ بِأَكْلِهِ حتى صَاحَ بِالثَّعْلَبِ: أيُّها المَحْتالُ الخَطيرُ، أَيْنَ مُخُّ الحِمارِ؟ فَقالَ الثَّعْلَبُ مُرْتَعِداً مُتَلَعْثِماً وَرِكابُهُ تَصْطَكُّ مِنْ شِدَّةِ الخَوفِ: يَا سَيِّدي المُطاعَ وَيا

مَولايَ المُجَاب، يَا حَكيمَ الزَّمانِ وَسَابقَ العَصْرِ وَالأوانِ، كَيفَ! كيفَ يَا سَيِّدي؟! فَلَو كَانَ الحِمَارُ يَملكُ مُخّاً ـ يا مَلِكَ الغَابَات وَزَعِيمَ الحَيواناتِ ـ لَوْ كَانَ يَملكُ هَذا المُخَّ الذي سَألتَ عنْهُ لمَا عَاد بَعد قَطعِ أُذُنَيهِ وَذيلِه.

فَابْتَسَمَ الأَسَدُ، وهو الخَبيرُ العارِفُ بِمَكْرِ الثَّعالِبِ، ثُمَّ قالَ: صَدَقْتَ أَيُّها الثَّعْلَبُ المَاكِرُ.

وَمِنَ الحكايَاتِ الطَّرِيفَةِ القَدِيمةِ أيْضاً: أنَّ ثَعلباً انْطَلَقَ يَبْحَثُ عَنْ طعَامٍ، وأَوْشَكَ أَنْ يَهْلَكَ مِنَ الجُوعِ، فَلَمَحَ عُصْفوراً يَلْتَقِطُ الحَبَّ مِنَ الأَرْضِ، فَانْقَضَّ عَلَيهِ.

فَقالَ العُصْفورُ: أَنَا صَغيرٌ، خَفِيفُ اللَّحْمِ، أَطْلِقْ سَرَاحِي وَسَأُسْدِي إِلَيكَ ثَلاثَ نَصَائِحَ نَافِعَةٍ؛ الأُولى وأَنا في يَدِكَ، والثّانِيَةُ وأَنَا فَوْقَ الشَّجَرَةِ، والثّالِثَةُ وأَنَا طائِرٌ فِي الهَواءِ.

وافَقَ الثَّعْلَبُ وَقَالَ: هَاتِ الأُولى. فَقالَ لَهُ العُصْفورُ: لا تَنْدَمْ عَلَى مَا فَاتَ.

ثُمَّ طَارَ وَحَطَّ عَلَى الغُصْنِ، ثُمَّ قالَ: أَمَّا الثّانِيَةُ؛ فَلا تُصَدِّقْ كُلَّ مَا تَسْمَعُ.

ولَمَّا طارَ بَعِيداً في الهَواءِ قالَ: لَوِ الْتَهَمْتَني لأَشْبَعُكَ لَحْمِي وَرَوَاكَ دَمِي، أَيُّها الأَحْمَقُ.

فَنَدِمَ الثَّعْلَبُ وحَزِنَ حُزْناً شَدِيْداً، ثُمَّ قالَ: لَكِنَّكَ لَمْ تَقُلْ لي مَا النَّصِيحَةُ الثَّالِثَةُ؟

قالَ العُصْفورُ: تَعَلَّمْ أَنْ تَنْتَفِعَ مِنْ نَصَائِحِي.

ثُمَّ طارَ حَتَّى اخْتَفَى عَنْ نَظَرِ الثَّعْلَبِ.

فَانْطَلَقَ الثَّعْلَبُ يَبْحَثُ عَنْ طَعامٍ مِنْ جَديدٍ، ومَرَّ في طَرِيقِهِ بِلَوْحَةٍ كُتِبَ عَلَيها: «احْذَرِ الوُقُوعَ فِي البِئْرِ!»، فَابْتَسَمَ وقَالَ: لَنْ أُصَدِّقَ كُلَّ ما أَسْمَعُ وَيُقَالُ، ثُمَّ عَبَرَ وَسَقَطَ فِي البِئْرِ، فَقَضَى جُوعاً وَنَدَماً.

كانَ بُونزي يَسْتَدْعِي كُلَّ تِلْكَ القِصَصِ والحكَايَاتِ لِيُلْهِيَ نَفْسَهُ عَنْ آلامِ الجُوعِ وقَرْصَةِ البَرْدِ قَدْرَ مَا يَسْتَطِيعُ، فَلا شَكَّ أَنَّهُ إِذا اجْتَمَعَ البَرْدُ وَالجُوعُ عَلَى صَاحِبِهِما، كانَ الْتِئامَ شَمْلِهِما أَشَدُّ ثِقْلاً وفَتْكاً مِنِ انْفِرادِهِما، فَلِكُلٍّ مِنْهُمَا قُوَّةٌ جَبَّارَةٌ تُعَزِّزُ جَبَروتَ الآخَرِ.

وَبُونزي هُوَ اسْمٌ حَقِيقيٌّ لَهُ، لا يُقصَدُ به نَوعٌ مُعَيَّنٌ مِنْ أَنْوَاعِ الثَّعَالِبِ الَّتي تَنْتَمي إلى سُلَالَةِ الكَلْبِيّات «القَارِتَةِ»، أيْ آكِلَةِ اللُّحوم وَالنَّباتاتِ، وسُمِّيَتْ كَذلِكَ لأَنَّها تَمْتَلِكُ مِعْدَةً مُهَيَّأَةً لِتَأْكُلَ بِشراهَةٍ مِمَّا تَشْتَهي مِنْ لحْمٍ وزَرْعٍ.

والثَّعَالِبُ أَنْوَاعٌ كَثيرةٌ جِداً، وهِيَ مُنتشِرَةٌ حَولَ

العَالَم، ويُقالُ أَنَّها تَزِيدُ على (٢٥) نَوْعاً، وقَدْ تَكُونُ أَنْوَاعُها أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ مِنْها ثَعْلَبٌ، وَعَلى الأُنْثَى ثَعْلَبَةٌ، والصِّغَارُ: هَجَارِسُ وَضَغابِيسُ وجِرَاءُ. أَمَّا صَوتُها فَضُباحٌ.

وكنْيَةُ الثَّعْلَبِ (أَبُو الحُصَينِ، وأَبُو النَّجْمِ، وأَبُو نَوفَل، وأَبُو الوثابِ، وأَبُو الحنبص، وغَيْرُها)، والأُنْثَى (أُمُّ عَوِيلٍ)، والذَّكَرُ (ثَعْلَبانُ).

ومُعْظَمُ أَنْواعِها تُشْبِهُ صِغَارَ الكِلابِ، إِلَّا أَنَّ لِلثَّعلَبِ ذَيْلاً كَثِيفاً، وأُذُنَينِ مُدَبَّبَتَينِ، وَخَطْماً طَوِيلاً حَادّاً.

أَمَّا سَمْعُها فَشَديدٌ، وَحَاسَّةُ الشَّمِّ عِنْدَها قَوِيَّةٌ، وَهِيَ تَعْتَمِدُ بِشَكْلٍ خَاصٍّ عَلَى هَاتَينِ الحَاسَّتَينِ مِنْ أَجْلِ تَحْديدِ الفَرِيسَةِ وَمِنْ ثَمَّ الانْقِضَاضِ عَلَيها. فَهِيَ تَرى الأَشْياءَ الَّتي تَتَحَرَّكُ بِوضُوحٍ، ورُبَّمَا لا تُعيرُ

انْتِباهاً لِلفَرائِسِ عِنْدَمَا تكونُ ثابِتَةً غَيْرَ مُتَحَرِّكَةٍ، والَّتي عِنْدَما تَشْعُرُ بِوجودِها؛ تَجْمدُ وَتَتَوَقَّفُ عَنِ الحَرَكَةِ وَكَأَنَّهَا صَنَمٌ.

ولِلثَّعالِبِ في كُلٍّ مِنَ القَدَمَينِ الأَمَامِيَّتينِ أَرْبعُ أَصَابعَ بارِزَةٍ، وإِصْبعٌ دَاخِليَّةٌ لَا وَظِيفَةَ لَها. والإِصْبَعُ الدّاخِلِيَّةُ إِبْهامٌ غَير مُتَحَرِّكٍ، وَلَا يُلامِسُ الأَرْضَ. وَفي كُلِّ قَدَمٍ خَلْفِيَّةٍ أَرْبعُ أَصَابعَ، وَعِنْدَ المَشْي أَوِ الجَرْي فَإِنَّ كَفَّي القَدَمَينِ الخَلْفِيَّتَينِ تَقَعانِ عَلى إِثْرِ القَدَمَينِ الأَمَامِيَّتَينِ.

وَترْفَعُ مُعْظَمُ الثَّعالِبِ ذُيُولَها ـ أوْ أَذْيَالَها لا فَرْقَ ـ بِشَكْلٍ مُسْتَقِيمٍ أَثْنَاءَ الجَرْي، وَتُخْفِضُهَا عِنْدَ المَشْي.

وعَلَى ذِكْرِ الذَّيْلِ؛ تَقولُ العَربُ: «هُوَ فِي ذَيلٍ ذائِلٍ»، أَي في هُونٍ شَديدٍ. وكَذلِكَ يَقولُونَ: «هُوَ طَويلُ الذَّيْلِ»، أَيْ يَعيشُ في غِنًى ظَاهِرٍ.

وَيـنَـامُ الـثَّـعْـلَـبُ وَذَيـلُـهُ فَـوقَ أَنْـفِـهِ، أوْ فَـوقَ راحَـةِ قَائِمَتَيهِ الأَمَامِيَّتَينِ.

وَسُئِلَ الثَّعْلَبُ يَوماً: مَا لَكَ تَعْدُو أَكْثَر مِنَ الكَلْبِ؟

فَأَجابَ: لأَنِّي أَعْدو لِنَفْسِي، والكَلْبُ يُعْدو لِغَيْرِهِ.

وَقالَ الجَاحِظُ، وَهُوَ أَديبٌ كَبِيرٌ عَاشَ قَبْلَ أَكْثَر مِنْ أَلْـفِ عَـامٍ: «مِـنْ أَشَـدِّ سِـلاحِ الـثَّـعْـلَـبِ الـرَّوَغـانُ والتَّمَاوُتُ».

ولمَّا وَصَفَ العَرَبُ المُخَادِعَ قَالوا:

«أَدْهَى مِنْ سِلَاحِ الثَّعْلَبِ».

وَ «أَرْوَغُ مِنْ ثَعْلَبٍ».

وَقالَ الشَّاعِرُ:

يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلاوَةً
وَيَروغُ مِنْكَ كَمَا يَرُوغُ الثَّعْلَبُ

وقالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الثَّعْلَبَ سَبُعٌ جَبانٌ مُسْتَضْعَفٌ،

لَهُ مَكْرٌ وَخَديعَةٌ، لَكِنَّهُ لِفَرْطِ خُبْثِهِ يَجْري مَعَ كِبَارِ السِّباعِ.

وَمِنْ حِيلَتِهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ أَنَّهُ يَتَمَاوَتُ، وَيَنْفُخُ بَطْنَهُ وَيَرْفَعُ قَوائِمَهُ حتَّى يَظُنَّ مَوتَهُ كُلُّ مَنْ رَآهُ، فَإِذا اقْتَرَبَ مِنْهُ حَيوانٌ؛ وَثَبَ عَلَيهِ الثَّعْلَبُ وَصَادَهُ، لَكِنَّ حِيلَتَهُ هَذِهِ لا تُفْلِحُ مَعَ كِلابِ الصَّيْدِ الذَّكِيَّةِ المَاهِرةِ، ولِذَلِكَ فَهُوَ يَتَجَنَّبُها، وَلَا يُحَاوِلُ الاحْتِيالَ عَلَيْهَا.

ومِنْ ظَرِيفِ مَا يُحْكَى عَنِ الثَّعالِبِ؛ أَنَّ البَرَاغِيثَ إِذَا كَثُرَتْ فِي صُوفِ أَحَدِها، تَناوَلَ صُوفَهُ بِفَمِهِ ثمَّ دَخَلَ النَّهرَ قَلِيلاً لِتَصْعَدَ البَراغِيثُ فِرَاراً منَ الماءِ، ثمَّ تَجْتَمِعُ في الصُّوفَةِ الَّتي في فِيهِ فَيُلْقِيها فِي المَاء، ثُمَّ يَهرُبُ.

وَلِتَسْمِيَةِ الثَّعْلَبِ باسْمِ (بُونزي) قِصَّةٌ طَويلَةٌ؛ مُخْتَصرُها أَنَّ أَبَاهُ كانَ مُعْجَباً بِحِكايَةِ مُراوِغٍ شَهيرٍ اسْمُهُ

(بُونزي)، تَمَنَّى أَبُوهُ أَنْ يَكونَ ابْنُهُ مِثْلَهُ، لا سِيَّما وأَنَّ الثَّعالِبَ شَهيرَةٌ بِالمَكْرِ والخِداعِ والمُراوَغَةِ.

وَكانَتْ رَغْبَةُ أَبيهِ أَنْ يُصْبِحَ ابْنُهُ أَكْثَرَ الثَّعالِبِ مَكْراً، فَسَمَّاهُ بُونْزي. لَكِنَّ أَحْلامَهُ وَآمالَهُ لَمْ تَتَحَقَّقْ وَذَهَبَتْ مَعَ الرِّيحِ، لأَنَّ ابْنَهُ كانَ ثَعْلَباً بَسِيطاً سَاذَجاً، يُحاوِلُ المُراوَغَةَ بِلا مَهارَةٍ، وَغالِباً ما يَفْشَلُ في النِّهايَةِ.

حَتَّى أَنَّهُ قَدْ يَبِيتُ فِي بَعْضِ اللَّيالي جَائِعاً، كمَا هِيَ حَالُهُ فِي هَذِهِ اللَّيلَةِ البَارِدَةِ المَطِيرَةِ، الَّتي يَبْدو جُوعُهُ فِيها شَديداً، بِحَيثُ أَنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الصُّمودِ، وَخَرَجَ هَائِماً عَلَى وَجْهِهِ، حَيْرانَ أَسِفاً.

٥ ـ قِصَّةُ بُونَزي المُحْتالِ

بُونزي فِي وَاقِعِ الحَالِ رَجُلٌ حَقِيقيٌّ، عَاشَ فِيمَا بَيْنَ القَرْنَينِ المَاضي والذي سَبَقَهُ، مُتَنَقِّلاً مَا بَينَ إِيطاليا وأَمْريكا وَكَنَدا، وَقَضَى زَمَناً طَوِيْلاً مِنْ حَيَاتِهِ فِي السِّجْنِ، بِسَبَبِ طُرُقِهِ المُلتَوِيَةِ وَغَيرِ القَانونِيَّةِ المَشروعَةِ فِي الحَيَاةِ.

اشْتُهِرَ بِكَثْرةِ احْتِيالاتِهِ الذَّكِيَّةِ مُنْذُ أَكْثر مِنْ مِئَةِ سَنَةٍ، وَامْتَدَّتْ شُهْرَتُهُ حَتَّى اليوم.

وَلَوْلا مَكَانَتُهُ العَالِيةُ فِي النَّصْبِ لَمَّا ظَلَّ ذِكْرُهُ شَائِعاً رَغْمَ وَفاتِهِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، فَقِصَصُهُ لا تُشْبِهُ قِصَصَ أَشْعَبَ فِي التُّراثِ العَرَبيِّ، فَأَشْعَبُ لَمْ يَكُنْ نَصَّاباً، بِالرَّغمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ جَشِعاً، كَمَا تَحْكِي حِكاياتُهُ الكَثِيرةُ.

والجَشِعُ وإِنْ كانَ يَحْمِلُ خِصْلةً مَذْمُومَةً، بَلْ مِنْ

أَشَدِّ الخِصَالِ غَيْرِ المَحْمُودَةِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَكونَ نَصَّاباً، ولَرُبَّمَا كَانَ أَشْعَبُ مَظْلُوماً فِيما يُقالُ عَنْه، وفِيما يُنسَبُ إِلَيهِ مِنْ حَكَايا وقِصَصٍ فِي الجَشَعِ قَدْ يَكونُ مِنْها بَراء، كَبَراءَةِ الذِّئْبِ مِنْ دَمِ النَّبيِّ يُوسُفَ عليه السلام.

لَكِنَّ الذِّئْبَ يَبْقَى دَائِماً مُتَّهَماً حَتَّى تَثْبُتَ بَراءَتُهُ.

فَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ بَراءَتَهُ ثابِتَةٌ في قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام عِنْدَما أَلْقَاهُ إِخْوَتُهُ فِي البِئْرِ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْهُ غِيرَةً وحَسَداً وَحِقْداً عَلَيهِ بِسَبَبِ مَحَبَّةِ أَبِيهِ لَهُ وَتَفْضيلِهِ عَلَيهِم لِمَكَانَتِهِ وأَخْلَاقِهِ، واتَّهَمُوا الذِّئْبَ بِذَلِكَ، فَإِنَّهُ بِالتَّأْكِيدِ لَيْسَ بَرِيئاً لِلُطْفِهِ. غَيْرَ أَنَّ بَراءَتَهُ حَلَّتْ عَلَيهِ هُنا مَكْرُمَةً لِكَذِبِ إِخْوَةِ يُوسُفَ فَقَط، ولَيسَ لأَنَّهُ بَريءٌ فِي ذاتِهِ.

فَهُمُ اتَّهَموهُ لأَنَّ تاريخَهُ يَقْبَلُ الاتِّهامَ عَنْ جَدارَةٍ وقَناعَةٍ، وَيَسْهُلُ إِلْصَاقُ التُّهْمَةِ بِهِ أَكْثر مِنْ تَبْرِئَتِهِ، وَكَمَا يُقالُ فَإِنَّ جِسْمَهُ «لبيسٌ» لِمِثلِ هَذِهِ التُّهْمَةِ، والذِّئْبُ يَظَلُّ مُتَّهَماً حَتَّى يُثبِتَ مَا هُو عَكْسُ ذَلِكَ، وأَنَّى لَهُ هَذا؟!

فَالأَصْلُ في الحُكْمِ عَلَيهِ يَرْتَكِزُ عَلَى الاتِّهامِ، أَمَّا بَراءَتُهُ فَفَرْعٌ لا أَصْلَ لَهَا، حتَّى وإِنْ كانَتْ مُسْتَحِقَّةً لازِمَةً كَبَراءَةِ الذِّئْبِ مِنْ دَمِ يَوسُفَ، لأَنَّ بَراءَتَهُ في حَالٍ، لا تَمنعُ اتِّهَامَهُ فِي أَحْوَالٍ أُخْرَى.

أَمَّا بُونزي الحَقيقي فيُعْتَبَرُ مِنْ أَكْبَرِ المُحتَالِينَ المَشَاهيرِ المُؤكَّد اتِّهامَهُ فِي التَّاريخِ المُعاصِرِ وَلا بَراءَةَ لَهُ. وُلِدَ في إِيطاليا عَام (١٨٨٢م)، ثمَّ هَاجَرَ إلى الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ الأَمْريكيَّةِ في شَبَابِه، وَاسْتَخْدَمَ أَسْمَاءَ كَثِيرةً، مِنْها: تَشارلِز وَكارلو وكارل، لَكِنَّ لَقَبَهُ ـ بُونزي ـ كَانَ الأَكْثَرَ شُهْرَةً، وارْتَبَطَ بِمُخَطَّطاتِ الاحْتِيالِ في العالَمِ كَافَّةً، وتَحوَّلَ إلى تَسْمِيَةٍ حَمَلَهَا عَدَدٌ كبيرٌ مِنَ الأَشْخاصِ في العالمِ مِنْ بَعْدِهِ.

وكانَ أَبُو بُونْزي الثَّعْلَبُ مُعْجَباً جِدّاً ببونزي الرَّجُلِ، فَمَا أَنْ وُلِدَ ابْنُهُ الوَحِيدُ حتَّى قَالَ: أُرِيدُ أَنْ

أُسَمِّيَهُ بُونْزي، وَأَرْجُو أَنْ يَحمِلَ صِفاتِهِ الشَّهِيرةَ، فَيَكونَ مُراوِغاً مُحْتَرَماً مِثْلَهُ؟

وَمِنَ المَشْهورِ اليَومَ أَنَّ عِبَارَةَ (مُخَطَّط هَرَمِ بُونزي) بَاتَتْ تَلْتَصِقُ بِكُلِّ عَمَلِيَّةِ احْتِيالٍ مَاليٍّ، وخاصَّةً عَمَلِياتِ النَّصْبِ الاسْتِثمارِيِّ الوَهْميِّ التي يَدْفَعُ فيها المُسْتَثْمِرونَ الجُدُدُ الأَرْبَاحَ المَوعودَةَ لِلْمُسْتَثمرينَ الذينَ سَبَقوْهُمْ.

واشْتُهِرَتْ هَذِهِ العَمَلِيَّةُ بِاسْمِ (المُخَطَّط الهَرَمِي)، أَيْ عَلَى شَكْلِ هَرَمٍ.

وَشَرْحُ هَذا المُخَطَّطِ مُعَقَّدٌ وطَويلٌ، لَكنَّهُ بِبَساطَةٍ وبِاخْتِصَارٍ يَتَشَكَّلُ مِنْ هَرَمٍ يَسْكُنُ قِمَّتَهُ المُسْتَثْمِرونَ الأَوَائِلُ، ثمَّ يَنْحَدِرُ مَعَ المُسْتَثْمِرينَ الجُدُدِ شَيئاً فَشَيئاً، وكُلُّ جَديدٍ يَدْفَعُ أَرْباحَ القَدِيمِ مِنْ مَالِه، وفي النِّهايَةِ يَنْهارُ الهَرَمُ ويَفِرُّ صَاحِبُ الفِكْرَةِ بَعْدَ أَنْ يَكونَ قَدْ جَمَعَ مَالاً وَفِيراً.

وبُونزي الثَّعْلَبُ يَتَعجَّبُ كَثِيراً مِنَ احْتِيالاتِ بُونزي

الإِنْسانِ، وتُدْهِشُهُ طَريقَةُ تَفْكِيرِ النَّاسِ عامَّةً، ويُرَدِّدُ سِرّاً وَعَلانِيَةً قَولَهُ:

«إِنَّ النَّاسَ بَاتُوا يَغْلِبونَ الثَّعالِبَ بِمَكرِهِم، ثمَّ يَزعُمُونَ أَنَّ الثَّعالِبَ أَشَدُّ مَكْراً، حَتَّى الذِّئابَ لَمْ تَسْلَمْ، مِثْل الثَّعالِبِ.

ومُنْذُ القِدَمِ. لَنَا فِي عِبرةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ مَا يؤكِّدُ ذَلِكَ».

ويُتابِعُ مُتَسَائِلاً مُتَعَجِّباً: «لِمَاذا يُصِرُّ الإِنْسَانُ عَلَى وَصْمِ الثَّعالِبِ والذِّئابِ بالمَكْرِ والخُبثِ والخِداعِ، حَتَّى أَنَّهُ لَا تُوجَدُ قِصَّةٌ لِلأَطْفَالِ إِلّا ويَكونُ الثَّعْلَبُ والذِّئْبُ فِيها مُخَادِعَينِ، وَلَا مَرةً واحدةً كانَا مَظْلُومَينِ بَريئَينِ؟! فَهَل رَأَى أَحَدٌ ثَعْلَباً وَضَعَ إِنْساناً في قَفَصٍ، أَوْ ذِئْباً رَمَى طِفْلاً في بِئْرٍ، واتَّهَمَ غَيْرَه بِقَتْلِهِ! أَوِ اغْتالَهُ لِيَسْتَفِيدَ مِنْ جِلْدِهِ وَيَتَباهَى بِفَرْوَةِ رَأْسِهِ؟! غَيْرَ أَنَّ الإِنْسانَ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِكَثيرٍ».

ويُرْوَى في الحكاياتِ الشَّعْبِيَّةِ أَنَّ أَحَدَ الثَّعالِبِ كانَ يَدْعُو رَبَّهُ في كُلِّ يَومٍ قائِلاً: «اللَّهُمَّ اكْفِنَا شَرَّ ابْنِ آدَمَ». وكَانَ لَهُ ابْنٌ صَغيرٌ يَسْخَرُ مِنْهُ ومِنْ دُعائِهِ، ويَقولُ لَهُ: مَنْ هو هَذا ابْنُ آدَمَ الذي تَدْعُو كُلَّ يَومٍ ليِقيَكَ اللهُ شَرَّهُ؟

فَيَسْكُتُ الأَبُ لأَنَّهُ يَعْرِفُ أَنَّ ابْنَهُ صَغِيرُ السِّنِّ، لَمْ يَعْرِكِ الحَياةَ بَعدُ، وَلَمْ يَفْهَمْ أَسْرارَها وَخَفايَاها.

وذاتُ يَومٍ خَرَجَ الثَّعْلَبُ يَبْحَثُ عَنْ طَعامٍ لَهُ ولِعائِلَتِهِ، وَخَرَجَ ابْنُهُ الصَّغيرُ مِنْ وِجَارِهِ، وأَخَذَ يَلْعَبُ ويَرْكُضُ حَتَّى ابْتَعَدَ كَثِيراً، فَرَآهُ فِتْيَةٌ، فَتَرَبَّصوا لَهُ حَتَّى أَمْسَكُوا بِهِ، ورَبَطُوهُ بِحَبْلٍ فِي عُنُقِهِ وَأَخَذوا يَسْحَبونَهُ ويَجُرُّونَهُ، وإِذَا امْتَنَعَ ضَرَبوهُ عَلَى ظَهْرِهِ، وظَلَّ عَلَى تِلْكَ الحالِ سَاعَةً رَهِيبةً، وكادَ يَهْلَكُ مِنْ شِدَّةِ العَناءِ، ولَمْ يَعُدْ مُسَلِّياً لَهُمْ، فَمَلَّ الفِتْيَةُ مِنْهُ وأَفْلَتوا الحَبْلَ، فَأَسْرَعَ يَرْكُضُ مِثْلَ المَجْنونِ، بِكُلِّ ما أُوتِي مِنْ قُوَّةٍ، حتَّى وَصَلَ مُنْهَكاً إلى مَسْكَنِهِ.

وفي صَبيحَةِ اليومِ التّالي عِنْدَمَا كانَ الثَّعْلَبُ الأَبُ يَدْعُو بِدُعائِهِ المُعْتادِ: «اللهُمَّ قِنَا شَرَّ ابْنِ آدَمَ»؛ رَفَعَ الثَّعْلَبُ الصَّغيرُ يَدَيهِ قائِلاً: «وشَرَّ أَبْنائِهِ يا أَبي، وشَرَّ أَبْنائِهِ يا أَبي».

عِنْدَها فَهِمَ الثَّعْلَبُ الأَبُ أَنَّ ابْنَهُ تَعَلَّمَ دَرْساً فِي الحَياةِ سَيَنْفَعُهُ طِيلَةَ عُمرِهِ.

ويَرَى بونزي أَنَّ العَلاقَةَ العدائِيَّةَ بَينَ الثَّعالِبِ والبَشَرِ رَاسِخَةٌ، حَتَّى تَكاد «نَتِيجَةً لأَفْعَالِ الإِنْسانِ أَنْ تَنْقَرِضَ الثَّعالِبُ، فِيما لَجَأَ مَا تَبَقَّى مِنْها إلى الأَمَاكِنِ النَّائِيَةِ البَعِيدةِ، فِراراً مِنَ الإِنْسَانِ وَمَكْرِهِ» كَما يَقولُ بُونزي.

وبِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ فَإِنَّ بُونْزي الأَبَ كانَ مُعْجَباً إلى حَدٍّ كَبيرٍ بِالمُحْتالِ بُونْزي وبِعَمَلِيَّاتِهِ الشَّهيرَةِ، فَسَمَّى ابْنَهُ بِاسْمِهِ، مُمَنِّياً النَّفْسَ بِأَنْ يَكونَ بُونْزي ـ الذَّائِعُ الصِّيتِ ـ قُدْوَةً لِوَلَدِهِ، فَيُصْبِحَ مُحْتالاً كَبِيراً مِثْله، دُونَ أَنْ يُفَكِّرَ الثَّعْلَبُ الأَبُ بِعاقِبَةِ تَفْكِيرِهِ، ودُونَ

أَنْ يَهْتَمَّ بِمصيرِ بُونزي المُحْتالِ، الذي قَضَى في السِّجْنِ، عَلَى مَراحِلَ، مُعْظَمَ سَنَواتِ عُمرِهِ.

وَتَحكِي قِصَّةٌ واقِعِيَّةٌ قَدِيمَةٌ؛ أَنَّ بونزي المُحْتالَ، هاجَرَ فِي بِدايةِ شَبَابِه عَام (١٩٠٣م) مِنْ وَطَنِهِ إيطاليَا إلى أَمْريكا، حَيثُ عَمِلَ فِي أَحَدِ المَطاعِمِ، غَيرَ أَنَّهُ طُرِدَ سَريعاً لِقِيامِهِ بِسَرِقَةِ الزَّبَائِنِ.

وبَعْدَ نَحْوِ أَرْبَعِ سَنَواتٍ انْتَقَلَ إلى كَنَدا، وَعَمِلَ فِي بَنْكٍ إيطاليٍّ، فَصَرَفَ لِنَفْسِهِ شِيكاً مُزَوَّراً، وانْتَهَى الأَمْرُ بِهِ إلى السَّجْنِ ثَلاثَ سَنواتٍ، ثمَّ عَادَ إلى الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ مُصِرّاً عَلَى أَخْطائِهِ، فَعَمِلَ بِتَهْريبِ المُهَاجِرينَ، فَقُبِضَ عَلَيهِ وَسُجِنَ لِلمَرَّةِ الثَّالِثَةِ، وبَعْدَ سَنَتَينِ أُفْرِجَ عَنهُ، وَذَهَبَ إلى مَدينَةِ بُوسطِن، حَيْثُ تَزَوَّجَ وَعَمِلَ فِي بِقالَةٍ، دُونَ أَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ عادَتِهِ بِالنَّصْبِ والاحْتِيَالِ.

ومِنْ قِصَصِهِ الشَّهيرةِ أَنَّهُ في يَومٍ وَصَلَتْهُ رِسَالةٌ وفي

داخِلِها (كوبون) بَريديٌّ، يمَكِّنُهُ مِنَ الرَّدِّ دُونَ أَنْ يَدْفَعَ مِنْ مَالِهِ، كَمَا يُمكِنُ اسْتبْدالُهُ بِطوابعَ تُغَطِّي تَكْلِفَةَ البَريدِ في البَلَدِ المُرسَلِ إِلَيْهِ، وَإِذا كَانَتْ هَذِهِ القِيمَةُ مُخْتَلِفَةً فِي البَلَدَينِ فَيُمْكِنُ تَحْقِيقُ رِبْحٍ.

وبَعْدَ الحَرْبِ العَالميَّةِ الأُوْلى خَفَّضَتْ إيطاليَا تَكْلفَةَ البَريدِ، عِندَها خَطَّطَ بُونْزي لِشِراءِ الكوبوناتِ الرَّخِيصَةِ مِنْ إيطاليا واسْتِبْدالِها بِطَوابعَ بَريديَّةٍ في الولاياتِ المتَّحِدَةِ، ثمَّ بَيعِها بِسِعْرٍ أَعْلَى.

اتَّصَلَ بُونزي بِأَصْدِقائِهِ فِي بُوسْطِن وَوَعَدَهُم بِأَنَّهُ سَيُضَاعِفُ اسْتِثْماراتِهم سَريعاً مِنْ خِلالِ التَّحَكُّم فِي (الكُوبونَات) البَريدِيَّةِ، وَبَدَأَ بَعْضُهمْ في الاسْتِثْمارِ مَعَهُ، وَانْتَشَرَ خَبَرُ المُخَطَّطِ بِسُرْعَةٍ، وبَدَأَتِ الأَمْوالُ تَتَدَفَّقُ عَلَيهِ، وَكَانَ يَدْفعُ للْمُسْتَثْمِرينَ القُدَامَى مِنْ أَمْوالِ الجُدُدِ.

وفي عَام (١٩٢٢م) كُشِفَتْ خِدْعَتُهُ وَسُجِنَ فَترَةً

طَويلَةً، ثمَّ أُفْرِجَ عَنهُ عَام (١٩٣٤م)، وَرُحِّلَ إلى إيطاليا، وعَاشَ بَعْدَ ذلكَ فِي فَقْرٍ وَعُزْلَةٍ إلى يَوْمِ وَفاتِهِ عام (١٩٤٩م)، غيرَ أَنَّ قِصَّتَهُ تَكَرَّرَتْ بَعْدَ ذلكَ آلافَ المَرَّاتِ في أَنْحاءِ العالَمِ كافَّةً.

كانَ بُونْزي الثَّعْلَبُ يُفَكِّرُ كَثِيراً بِهَذِهِ القِصَّةِ، وَيَسْتَغْرِبُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ كَيْفَ أَنَّ كُلَّ بُونزي جَديدٍ يَجِدُ بِسُهُولَةٍ كَمِّيَةً كَافِيَةً مِنَ المُغَفَّلينَ لِيَلْعبَ بِعُقُولِهِمْ ويُغْرِيهِمْ بِالمَكْسَبِ السَّريعِ، فَيَسيلُ لُعَابُهُمْ وَتَتَوقَّفُ عُقولُهم عَنِ التَّفْكيرِ بِسَبَبِ الطَّمَعِ.

وفي الحَقِيقَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ النُّقْطَةَ هي الثَّغْرَةُ التي يَدْخُلُ مِنْهَا بُونْزي وَأَمْثَالُهُ لِيُجْهِزونَ عَلَى ضَحَايَاهُم.

وَقَدِيماً قَالُوا: «الطَّمَعُ ضَرَّ مَا نَفَعَ» أَمَّا «القَنَاعَةُ فكَنْزٌ لَا يَفْنَى».

وَهُنا تَذَكَّرَ بُونْزي قِصَّةَ المَثَل الأخِيرِ، وَهِيَ قِصَّةٌ رَوَتْها لَهُ أُمُّهُ هَذِهِ المَرَّةَ وَلَيسَ جَدُّهُ، حَيْثُ حَكَتْ لَهُ أَنَّ

ثَلاثَةَ أَصْدِقاءَ كانُوا في قَدِيمِ الزَّمَانِ يَقْطَعُونَ الصَّحْراءَ فِي طَرِيقِهِمْ إلى المَدِينَةِ لِلتِّجارةِ، وَعِنْدَمَا لاحَ لَهُمْ عمْرانُ المَدِينَةِ، صَادَفوا ثَلاثَةَ رِجَالٍ لَقوا حَتْفَهُمْ، وبِالقُرْبِ مِنْهُمْ ثَلاثَةُ أَكيَاسٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَاعْتَقَدوا أَنَّهم رُبَّما قَضَوا عَطَشاً أوْ مَرَضاً أوْ إِعْياءً.

فَفَرِحَ الأَصْدِقاءُ كَثيراً بِهَذِهِ الثَّروَةِ التي جَاءَتْهُم مِنْ غَيْرِ جُهْدٍ وَلا كَدٍّ، وَقَرَّروا تَقاسُمَ الأَكْيَاسِ، ثمَّ ذَهَبَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إلى المَدِينةِ لِيَأْتيَ بِالطَّعامِ، فَاشْتَرَى سُمّاً وَوَضَعَهُ في طَعَامِ صَدِيقَيهِ لِيَكونَ الذَّهَبُ لَهُ وَحدَهُ، لَكِنَّ صَدِيْقَيهِ قَرَّرا هُمَا أَيْضاً قَتْلَهُ عِنْدَ عَوْدَتِهِ، وَعِنْدَمَا عَادَ قَتلاهُ وَجَلَسَا لِلطَّعامِ، وَمَاتا قُرْبَ صَدِيْقِهما، وَبَقِيَ الذَّهَبُ عَلَى حَالِهِ.

وَكَانَتْ أُمُّ بُونْزِي تُضيفُ دَائماً: «وَغداً يَمُرُّ آخَرونَ فَيَجِدونَ الذَّهَبَ، وَيَتَساءَلونَ فيما بَينَهم عَنْ سِرِّ مَوتِهم، لَكِنْ؛ هَلْ سَيَموتُونَ مِيتَتَهم أَم سَيُكْمِلُونَ طَرِيْقَهُم بَعِيداً؟».

ثُمَّ تُعَقِّبُ بِالقَولِ: «النَّوايا السَّيِّئَةُ تَقْتُلُ أَصْحَابَهَا، وَالطَّمَعُ يُفْسِدُ النَّوَايَا».

أمَّا بُونزي فَيَتَذَكَّرُ ذَلِكَ، ولَا يَنْسَى أَنَّ أُمَّهُ لم تُوافِقْ أَبَاهُ عَلَى مَا كانَ يَتَمَنَّاهُ لابْنِهما الوَحِيدِ، هِيَ كانَتْ أُمٌّ طَيِّبَةٌ مِثْل سَائِرِ الأُمَّهَاتِ، ولَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ شَيئاً عَنْ بونزي المُحْتَالِ، وَعِنْدَمَا عَلِمَت بِقِصَّتِهِ أَصَابَها حُزْنٌ وَكَمَدٌ وَمَرَضٌ، ولم تَعِشْ بَعْدَ ذَلِكَ طَوِيلاً، فَقَدْ أَمْرَضَها الخَبَرُ مِنَ الحُزْنِ وَالأَسَى.

كَانَتْ تَحلُمُ أَنْ يَكونَ ابْنُها ثَعْلَباً مِثالِيّاً بَيْنَ أَقْرَانِهِ الثَّعَالِبِ، وَلَمْ تَكُنْ تُريدُ أَنْ يَكُونَ مُحْتالاً يُحِبُّ الأَذَى والضَّرَرَ.

كانَتْ تَأْملُ أَنْ يَعيشَ ابْنُها عَلَى طَبيعَتِهِ وَلَا يُقَلِّدَ غَيْرَهُ، وسَرْعَانَ مَا اكْتَشَفَتْ أَنَّ ابْنَها أَبْسَطُ بِكَثيرٍ مِمَّا كَانَ أَبُوْهُ يَتَمَنَّى، فَاطْمَأَنَّتْ سَرِيرَتُها، وَمَاتَتْ وَهِيَ عَنْهُ رَاضِيَةٌ.

٦ ـ الثَّعالِبُ تَشِيخُ سَرِيعاً

الثَّعْلَبُ الصَّغيرُ بُونزي كَانَ يَستَعيدُ تِلكَ المَواقِفَ والحكاياتِ التي أَخبَرَهُ بِها جَدُّهُ وأُمُّهُ، وَيَسْتَغْرِبُ كَيفَ سَمَّاهُ أَبُوهُ بِهَذا الاسْمِ مَعَ هَذِهِ النِّهايَةِ الحَزينَةِ لِبُونْزِي المُحْتالِ.

فَهُو وَإِنْ كَانَ يَعْرِفُ مَكْرَ الثَّعالِبِ، فَإِنَّهُ لَا يُريدُ بِالطَّبْعِ أَنْ يَصِلَ إلى نِهايةٍ تُشْبِهُ نِهايةَ مَنْ سَمَّاهُ جَدُّهُ عَلَى اسْمِهِ، خَاصَّةً أَنَّ بُونزي الرَّجُلَ عَاشَ نَحوَ سَبعينَ سَنَةً، بَينَما الثَّعالِبُ لا تَعيشُ غالِباً سُبعَ هَذِهِ السِّنِّ.

فَالثَّعالِبُ تَشِيخُ سَريعَاً، وَحَياتُها قَصِيرَةٌ، وَرُبَّما بَلَغَ أَقْصَى عُمرٍ لَهَا عَشْرَ سِنينَ أَوْ أَكْثرَ قَليلاً، وَهَذا يَعْنِي أَنَّ الثَّعْلَبَ يُصْبِحُ شَابَّاً بَعْدَ وِلادَتِهِ بِأَسَابِيعَ قَلِيلَةٍ، وَلَا يَلْبَثُ حَتَّى يَشِيخَ سَرِيْعاً فِي سَنواتٍ مَعدوداتٍ، فُعُمرُ

الطُّفولَةِ واللَّهْوِ قَصِيرانِ جِدّاً، وَرُبَّما أَقَلُّ مِنْ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ.

وَالثَّعْلَبُ بُونزي في الحَقيقَةِ ما يَزالُ فَتى يَافِعاً صَغيرَ السِّنِّ، فَعُمرُهُ بِضْعَةُ شُهورٍ فَقَط. وَهُوَ مُنْذُ طُفولَتِهِ الأُوْلى يَتَمَنَّى أَنْ يَكونَ كَبيراً ويَعيشَ طَويلاً.

ولِذَلِكَ فَإِنَّهُ يَكْرَهُ كَلِمَةَ ضَغابِيس التي تَجْعَلُهُ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ مازالَ طِفْلاً ضَعيفاً يَافِعاً، لأَنَّ مِنْ بَينِ معانِيها الضَّعْفَ المُهينَ، لِذا فَإِنَّهُ لا يَروقُهُ أَنْ يُقالَ له: «يَا ضُغْبُوس».

وَبِالرَّغْمِ مِنْ فَصَاحةِ الكَلِمَةِ، فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّها قَديمَةٌ قَدْ عَفَى عَلَيها الزَّمَنُ، وَيَجِبُ عَلَى ثَعَالِبِ اليَومِ أَلَّا تَستَخدِمَها كَمَا كَانتْ تَسْتَخْدمُها ثَعالِبُ الأَمْسِ البَعيدِ فِي أيَّامٍ غَابِرةٍ.

وِإذا حَدَثَ وَنَادَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَقْرانِهِ الصِّغَارِ بـ «يَا

أَيُّها الضُغْبوسُ» لِيُغيظَهُ ويُغْضِبَهُ؛ ثارَ وَانْتَفَضَ، وعَاجَلَهُ بِلَكْمَةٍ يُسَدِّدُهَا بِمَهَارَةٍ.

وَتَسْتَحْضِرُ ذاكِرةُ بُونزي هُنا قِصَّةً مِنْ قِصَصِ صِغَارِ الثَّعَالِبِ؛ وَهِيَ قِصَّةُ ثَعْلَبٍ اسْمُهُ (فَرْفَر)، كانَ يَعيشُ مَعَ جَمَاعَةِ الثَّعالِبِ قُرْبَ نَبْعِ مَاءٍ عَذْبٍ بَارِدٍ، وَكَانتِ الحَيَوانَاتُ الضَّعيفةُ تَخَافُ مِنَ الثَّعالِبِ فَتَسيرُ مَسَافَةً طَويلةً لِتَشربَ المَاءَ مِنْ مَكانٍ آخَرَ.

تَسَاءَلَ (فَرْفَرُ) عَنْ سَبَبِ مَنْعِ المَاءِ عَنْ سَائِرِ الحَيَواناتِ، فَقالَ رِفَاقُهُ:

عَادَةٌ سَيِّئَةٌ يَجِبُ الخلاصُ مِنْهَا. وكَمْ صَعْبٌ عَلى الجِيلِ الجَديدِ أَنْ يُغَيِّرَ العَاداتِ المُتَأَصِّلَةَ، وإِنْ كانَتْ خَاطِئةً.

وَبَعْدَما تشَاوروا فيما بَينَهم؛ تَوَجَّهوا نَحْوَ زَعِيمِهم طَالِبينَ مِنْهُ السَّماحَ لِباقي الحَيَواناتِ بِشُربِ المَاءِ مِنَ النَّبْعِ؛ لَكِنَّهُ رَفَضَ، فَأَصَرُّوا وَأَعْلَنُوا العِصْيَانَ وَالتَّمَرُّدَ،

وَظلُّوا ثَابِتِينَ عَلَى مَوقِفِهِم فَترةً مِنَ الزَّمَنِ، حَتَّى رَضَخَ الزَّعيمُ وَوَافَقَ عَلَى مَضَضٍ.

لَكنَّ هَذِهِ القِصَّةَ لا تُثيرُ إِعْجَابَ بُونزي، لأَنَّهُ يَعتَقدُ أَنَّ الثَّعالِبَ يَجِبُ أَنْ تَكونَ مِنْ أَسْيَادِ الغَابَةِ، فَهِيَ ذَكِيَّةٌ وَقَوِيَّةٌ وَتَملِكُ مِنَ الدَّهاءِ الشَّيءَ الوَفيرَ، فَضلاً عَنْ أَنَّ شَكْلَهَا أَجْمَلُ بِكَثيرٍ مِنْ مُعظَم الحَيَوانات، وكَأَنَّ الأَمرَ لا يَكونُ إلا بالهَيئَةِ والدَّهَاءِ.

فَضْلاً عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ بُونْزي يَرَى نَفسَهُ أَفْضَلَ بَنِي جِنْسِهِ؛ فَهوَ فَصيحُ اللِّسَانِ، قَويُّ الجَنَانِ، عَذْبُ البَيَانِ، بَهيُّ القَوامِ، أَنيقُ الهِنْدامِ.

يَكسُوهُ شَعْرٌ نَاعِمُ المَلْمَسِ، مَعْروفٌ بِالفَروِ، لَهُ مَنْظرٌ جَميلٌ ساحِرٌ، ذو مَرْأَى بَاهِرٍ.

ومِمَّا زَادَهُ اغْتراراً بِنَفْسِهِ إلى دَرَجَةِ الزَّهوِ؛ أَنَّهُ تَدَلَّعَ كَثيراً فِي طُفُولَتِهِ عَلَى يَدِ جَدِّهِ لأُمِّهِ، وَكَانَ ثَعْلَباً مَشْهُوراً في زَمانِهِ بِذَكَائِهِ، عَلِيماً حَكِيماً واسِعَ

الاطِّلاعِ، فَهِيماً بِالطِّبِّ وَالصَّيْدِ وَالزِّرَاعَةِ، خَبيراً بَالأَعْشَابِ والنَّباتاتِ وَعُلومِ الفَلَكِ، تَنَقَّلَ فِي طُولِ الغَابَةِ وَعَرْضِهَا فِي أَيَّامِ شَبَابِهِ الحَافِلَةِ بالنَّشاطِ والحَيَويَّةِ.

وَكانَ يُكثِرُ مِنَ السَّماعِ وَالقِراءَةِ، لَكنَّهُ في أَواخِرِ عُمُرِهِ هَدَأَ واسْتَكَنَ، ولَمْ يَكُنْ يُغَادِرُ مَسْكَنَهُ إِلّا نَادِراً وَعِندَ الضَّرورَةِ.

ومِثْلَمَا دَلَّعَ الجَدُّ الحَكِيمُ حَفِيدَهُ تَدْلِيعاً عَظيماً؛ عَلَّمَهُ بَعْضاً مِمَّا خَبِرَهُ فِي الحَيَاةِ، غَيْرَ أَنَّ المَوتَ دَهَمَهُ وَلَمْ يُمْهِلْهُ حَتَّى يُكْمِلَ تَعْلِيمَهُ وَتَدْرِيبَهُ، وَأَلْقاهُ بَينَ مَخالِبِ بُومَةٍ ضَخْمَةٍ، افْتَرَسَتْ جَسَدَهُ النَّحيلَ الضَّعِيفَ، فِي ليلةٍ مِنْ لَيالي الشِّتاءِ الحَالِكَةِ، لَيْلَةٍ تُشْبِهُ لَيلَتَنا هَذِهِ، فَأَصَابَ الحُزْنُ قَلْبَ بُونْزي، وَغَلَبَتْ شَقاوَتُهُ حِكْمَتَهُ بعْدَ حِينٍ مِنْ فَقْدِهِ لجَدِّهِ وَمُعَلِّمِهِ.

٧ ـ البُومَةُ القَرْنَاءُ الكَبِيرَةُ

تَذَكَّرَ بُونْزي وَهوَ فِي طَريقِهِ المُعْتِمِ شَرَّ تلكَ البُومَةِ التي فَتَكَتْ بِجَدِّهِ، وهي بُومَةٌ شَهيرَةٌ بِاسْمِ (القَرْناء الكَبيرَة)، وَتُعْرَفُ أَيْضاً بِأَسْمَاءَ أُخْرَى غَريبةٍ عَلَى السَّمْعِ قَبْلَ النُّطْقِ، مِثْل البُومَة (البَرِّيَّة، والنّاعِبَة، والسّنّوريَّة) وَغَيْرها مِنَ الأَسْماءِ.

وَهِي ذَاتُ حَجْمٍ كَبيرٍ قِيَاساً بِغَيرِها مِنَ البُومِ، وأَصْلُها لَيسَ منَ المَوطِنِ الذي نَشَأَ فيهِ بُونْزِي، جَاءَتْ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ، حَمَلَها جَنَاحَاهَا الكَبيرانِ القَوِيَّانِ، وَعِنْدَمَا هَاجَمَتْ جَدَّهُ سَمِعَ لَهَا صَوْتاً هَادِراً، يُشْبِهُ النَّبَاحَ وَالعَويلَ.

كَانَ الصَّوتُ رَهِيباً، صَوتٌ لَا يُشْبِهُ مَا تَصِفُهُ بَعضُ القِصَصِ وَحَكايَا الجَدَّاتِ بِأَنَّهُ صَوتٌ رَخِيمٌ حَنونٌ،

يَجْعَلُ مِنَ البُومَةِ حَيَواناً لَطِيفاً هَادِئاً حَكِيماً، عَلَى عَكْسِ مَا رَآهُ بُونزي بِعَينَيهِ، وَسَمعَهُ بِأُذُنَيهِ.

حَاولَ بُونزي إِقْصاءَ تِلكَ الحَادِثَةِ الأَلِيمَةِ عَنْ مُخَيِّلَتِهِ، مُسْتَعيداً حِكَايةً لِجَدِّهِ المِسْكِينِ عَنْ بومَةٍ تَشكو حَظَّها العَاثِرَ وتَقولُ:

«لا أَحَدَ يُحِبُّني، لَسْتُ جَميلَةً وصَوتي لَيسَ كَتَغْرِيدِ البَلابِلِ وَالحَسَاسِينِ، لَكِنْ هَذا لَيسَ ذَنْبي. فَالطُّيُورُ والحَيَواناتُ تَكْرَهُني دُونَ سَبَبٍ، وَتَخافُ مِنِّي وَمِنْ صَوْتِي».

البُومَةُ تَرْغَبُ بِمُجَالَسَةِ الطُّيورِ وَسَائِرِ الحَيَواناتِ، لَكنَّهُمْ يَبْتَعِدونَ عَنْهَا لِقُبْحِ شَكْلِها وَضَخامَةِ صَوتِها.

فَعَاشَتْ وَحِيدَةً تَتَأَمَّلُ النُّجُومَ فِي السَّمَاءِ.

وفِي لَيلَةٍ مِنْ لَيالي الخَريفِ، لاحَظَتْ شَيئاً مُريباً غَريباً لا يَكون عادَةً في هَذا الوَقت مِنَ السَّنَةِ؛ راقَبَتِ الرِّيحَ وتَأَمَّلَتِ اتِّجاهاتِها.

وَفَجْأَةً ودُونَ تَفْكيرٍ وتَأْخِيرٍ، هَبَّتْ مَذعورَةً تَصيحُ بِأَعْلَى صَوتِها:

«يا أيُّهَا الطَّيرُ، يَا أيَّتُها الحَيَوانَاتُ، قُومُوا مِنْ سُبَاتِكُم، الرِّيحُ العَاصِفَةُ قَادِمَةٌ».

وما أَنْ سَمِعتِ الطُّيُورُ والحَيَواناتُ هَذِهِ الصَّيحاتِ حَتَّى أَدْرَكَتْ عَلَى الفَوْرِ أَنَّ أَمْراً جَلَلاً قَدْ حَدَثَ، فَهَرَبَتْ جَميعُها وفي كُلِّ الاتِّجاهَاتِ، دُونَ أَنْ تَسْتَفْسِرَ عَنِ السَّبَبِ، وبِسُرْعَةٍ بالِغَةٍ لَجَأَتِ الحَيَواناتُ جَميعُها إلى مَواقعَ آمِنَةٍ، تَحْتَمي بِالجِبالِ وبِالكُهوفِ، كَمَا لَجَأَ الصِّغَارُ مِنْها إلى تَجَاويفِ جُذُوعِ الأَشْجَارِ الكَبيرةِ.

وسَيْطَرَ الهَلَعُ عَلَى المَكانِ كُلِّهِ، قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ الجَميعُ خُطورَةَ المَوقِفِ مَعَ بدْءِ الرِّيحِ العَاصِفَةِ المُزَمجِرةِ، التي تَعْصِفُ وَتَضْرِبُ وَتَنشُرُ الذُّعْرَ في الغَابَةِ، مُدَمِّرَةً كُلَّ مَا قَوِيَتْ عَلَى تَحطيمِهِ وتكسِيرِهِ.

وَفِي الصَّبَاحِ البَاكرِ، وَمَعَ انْجِلاءِ ظُلْمَةِ اللَّيلِ

ورَحيلِ العاصِفَةِ، سَادَ الوُجُومُ المَكانَ بَعْدَ أَنْ بَدَتِ الغابَةُ فِي خَرابٍ عَظيمٍ ومُصَابٍ جَلَلٍ، وَأَدْرَكَتِ الطُّيُورُ وَالحَيَوانَاتُ أَنَّهَا لَوْ بَقِيَتْ نَائِمَةً فِي بُيوتِها وأَعْشَاشِها لَحَمَلَتْها الرِّيْحُ مَعَها وَقَضَتْ عَلَيها، أَوْ لَقَذَفَتْها في مَكانٍ بَعيدٍ ناءٍ لا تَعرِفُ ـ رُبَّما ـ مِنْ بُعدِهِ طَريقَ العَودَةِ إلى الدِّيارِ.

وسَارَعَتِ الطُّيورُ والحَيَواناتُ كُلُّها يَتَفَقَّدُ بَعْضُها بَعْضاً، واطْمَأَنَّتْ جَميعُها بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَتْ أَنَّ أَحَداً مِنْها لَمْ يُصَبْ بِأَذًى.

عِندَ ذَلكَ أَدرَكَ سُكَّانُ الغابَةِ كُلِّها أَهَمِّيَّةَ مَا فَعَلَتْهُ البُومَةُ، فَتَوَجَّهَ الجَميعُ نَحْوَها، وأَقْبَلُوا عَلَيها يَشْكُرونَها ويَعْتَذِرونَ مِنْها.

قَالَ أَحَدُ الطُّيورِ:

«اطْلُبي مَا شِئْتِ مِنَّا أَيَّتُها البُومَةُ الطَّيِّبَةُ».

فَقَالَتْ لَهُمْ والسَّعادَةُ تَبْدو عَلَى مَلامِحِها:

«لـم أَقُـمْ إِلَّا بِواجِبي، وَلَيْسَ عِنْدِي غَيرُ طَلَبٍ وَاحِدٍ؛ أَنْ تَكونُوا أَصدقائي. هَلْ تَقبَلونِي صَدِيقةً لَكُم؟».

عِندَها دَنَتِ الطُّيورُ وَقَبَّلَتْ رَأْسَ البُومَةِ ثُمَّ قَالَتْ:

«كَمْ أَنتِ طَيِّبةٌ يَا صَديقَتَنا الغَاليةَ!».

فَقَالَتِ البُومَةُ بِفَرَحٍ وَدَهْشَةٍ وكَأَنَّها لَمْ تُصَدِّقْ مَا سَمِعَتْ: «أَنَا صَديقَتُكُمُ الغَالِيةُ؟!».

ثـمَّ عـاشَـتْ فِي صَدَاقَةٍ دَائِمَةٍ مَعَ جَميعِ سُكَّانِ الغَابَةِ.

لَكنَّ بُونزي مَا أَنْ وَصَلَ إلى نِهَايَةِ القِصَّةِ، حَتَّى عَادَ وَتَذَكَّرَ حَادِثَةَ جَدِّهِ المِسْكينِ مِنْ جَديدٍ، فَهُوَ لَمْ يَعُدْ يُصَدِّقُ هَذِهِ القِصَّةَ أَبَداً مُنْذُ تِلْكَ الحَادِثَةِ، فَكَيفَ يُمكِنُ أَنْ يُصَادِقَ بُومَةٌ تَفْتَرِسُ ثَعْلَباً؟!

نَظَرَ بُونْزِي فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ. كَانَ الظَّلامُ يَحجِبُ الرُّؤْيَةَ، فَبِالرَّغْمِ مِنْ قُوَّةِ الإبْصَارِ التي يَمْلِكُها؛ فَإِنَّ

تِلْكَ القُوَّةَ لا تُضَاهي أَبَداً قُوَّةَ البُومَةِ البَصَرِيَّةَ لَيْلاً فِي الظَّلامِ الدَّامِسِ.

فَهِيَ تَتَمَيَّزُ بِحاسَّةِ بَصَرٍ قَوِيَّةٍ جِدّاً، وهي الطَّائِرُ الوَحِيدُ الذي يَسْتَطيعُ أَنْ يَدوِّرَ رَأسَهُ بِدائِرَةٍ شِبْهِ تَامَّةٍ، وَهَذِهِ مِيزَةٌ لا يُضاهِيها فِيها أَحَدٌ.

ومِنْ مُمَيِّزاتِ البُومَةِ الغَريبَةِ أَنَّها تَسْتَطيعُ الطَّيَرانَ بِصَمْتٍ، فَلَا تُحْدِثُ أَجْنِحَتُها جَلَبَةً حَتَّى لا يَكْتَشِفَ وُجودَها الفِئْرانُ والقَوارِضُ والحَشَراتُ فَتَنْقَضُّ عَلَيهم، وتَأْكُلُهم بِتَلَذُّذٍ لأَنَّها تُشَكِّلُ غِذَاءَهَا المُفَضَّلَ.

وَيَسْأَلُ بونزي نَفْسَهُ مُسْتَنْكِراً:

طَالَما هَذا غِذاءُ البُومِ المُفَضَّلُ؛ فَلِمَاذا افْتَرَسَتْ جَدِّي، وَأَكَلَتْهُ بِكُلِّ شَرَاسَةٍ؟!

كانَتْ هَذِهِ الحَادِثَةُ مِنْ أَكْثَرِ الأَشْيَاءِ تَأْثيراً فِي نَفْسِ بُونزي، يُفَكِّرُ دَائِماً بِجَدِّهِ، وَيَسْتَعيدُ لَحَظاتِ الحُزنِ الشَّدِيدِ عَلَى فِراقِه.

وَيَتَذَكَّرُ كَيفَ أَجْهَشَ بِالبُكاءِ مَعَ أُمِّهِ وعائِلَتِهِ وَهُمْ يُوَدِّعُونَ مَا تَبَقَّى مِنْ جَسَدِ جَدِّهِ، حَيثُ لَمْ تَتْرُكِ البُومَةُ سِوَى بَعْضِ اللَّحْمِ المُلْتَصِقِ بِالعَظْمِ.

تَرَكَتْهُ بَعْدَ أَنْ شَبِعَتْ. فَقَدْ كانَ جَدُّهُ مِسْكِيناً في شَيْخوخَتِهِ؛ ضَعيفَ البُنْيَةِ، قَليلَ اللَّحْمِ، وَاهِنَ العَظْمِ، لا يَأْكُلُ كَثيراً، وَلَا يَتَمَتَّعُ بِالطَّعامِ مِثْلَ مُعْظَمِ كِبَارِ السِّنِّ الذينَ يُصَابُونَ بِأَمْراضِ الشَّيْخُوخَةِ.

قَطَعَ بُونْزي مَسَافَاتٍ طَويلَةً وَلمْ يُدْرِكْ أَيَّ فَرِيسَةٍ، فَعَادَ وَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى صَخْرَةٍ لِيَرتاحَ قَلِيلاً لأَوَّلِ مَرَّةٍ مِن بدْءِ المَسيرِ.

وبَعْدَ وَقْتٍ يَسيرٍ، لا هُوَ بِالطَّويلِ وَلا بِالقَصِيرِ؛ لَمَحَ فَأْراً رَمَادِيًّا يَقْفِزُ أَمَامَهُ مِثْلَ أَرْنَبٍ رَشيقٍ، فَاسْتَخَفَّ بِهِ وَسَخِرَ مِنْ حَجْمِهِ الصَّغِيرِ وَلَحْمِهِ الضَّئِيلِ.

فَقالَ فِي نَفْسِهِ: «أَنا ثَعْلَبٌ لا كَذِبَ، آكُلُ مِنَ النِّعاجِ السَّمِينَةِ ومِنَ الخِرافِ البَدِينَةِ، لَسْتُ ذِئْباً ولا ابْنَ آوَى، فَكَيفَ آكُلُ مِثْلَ هَذا القارِضِ؟! وأَنا الثَّعْلَبُ ذُو القِصَصِ الشَّهيرَةِ والحكاياتِ المُثيرةِ؟! لا يُمكِنُ أَنْ أَتَجاوَزَ تَارِيخِي وأَهْبطَ إلى هَذا المُسْتَوَى».

بُونزي يَعْلَمُ أَنَّ الذِّئْبَ أَكْبَرُ قامَةً مِنْهُ وَأَقْوَى، لَكِنَّهُ

يَعْلَمُ أَيْضاً أَنَّ الثَّعالِبَ أَكْثرُ دَهَاءً وَأَكْثَرُ صَبْراً وَحِنْكَةً وَحِيلَةً. والذِّئْبُ يُشْبِهُ الثَّعْلَبَ لَكِنَّ حَجْمَهُ أَضْخَمُ قَليلاً، وَالثَّعْلَبُ ذَكِيٌّ مَكَّارٌ، وَالذِّئْبُ ذَكِيٌّ وَمَكَّارٌ أَيْضاً، لَكِنَّهُ لَيْسَ بِقَدْرِ مَكْرِ الثَّعَالِبِ.

والذِّئْبُ يَعيشُ وَيَصْطادُ فِي جَمَاعاتٍ غَالِباً، أَمَّا الثَّعْلَبُ فَيعِيشُ عَادةً ضِمْنَ عَائِلَةٍ صَغيرةٍ، زَوجانِ وصِغَارُهما، أَوْ أُنْثَى فَقَط مَعَ صِغارِها، ورُبَّمَا عَاشَ مَعَهُم أَحَدُ الأَجْدَادِ كَمَا هُوَ حَالُ بُونْزي.

كَمَا يُفَضِّلُ الثَّعْلَبُ أَنْ يَصْطادَ فَرِيسَتَهُ بِشَكْلٍ فَرْدِيٍّ عَلَى عَكْسِ الذِّئْبِ.

وفي طَريقِهِ عَثَرَ بُونْزي عَلَى أَرْنَبٍ صَغِيرٍ، ماتَ مِنْ شِدَّةِ الصَّقيعِ. نَظَرَ الثَّعْلَبُ إلى الأَرْنَبِ المِسكينِ وتَمَنَّى لَوْ كانَ الآنَ يَنُطُّ ويَقْفزُ، فَراوَدَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَأْكُلَهُ، لَكِنَّ كَرَامَتَهُ تَأْبَى ذَلِكَ، وَتَرْفُضُ أَنْ يَأْكُلَ الجِيَفَ كَمَا يَأكُلُهَا ابنُ آوَى.

وبونزي يَأْنَفُ مِنِ ابْنِ آوَى ويَتَرَفَّعُ عَنْ سِيرَتِهِ.

تَذَكَّرَ قَولَ القائِلِ: «إِنَّ اللَّيثَ يَأْنَفُ مِنْ جَوابِ الثَّعْلَبِ»، وفي قَولَتِهِ هَذِهِ دَعْوَةٌ لِلتَّرَفُّعِ، وحَثٌّ عَلَى عِزَّةِ النَّفْسِ. وهَيهاتَ بَينَ اللَّيثِ والثَّعْلَبِ!

وبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ ابْنَ آوَى يُشْبِهُ الثَّعْلَبَ والذِّئْبَ مَعاً؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ عَنْهُما قَلْباً وَقالَباً، فَهُوَ أَصْغَرُ حَجْماً وأَشَدُّ خَوفاً، وأَقَلُّ حِنْكَةً ومَكْراً مِنْ كِلَيهِما.

وأَكْثَرُ مَا يُغْضِبُ بُونزِي مِنِ ابْنِ آوَى أَنَّ الأَخيرَ يَأْكُلُ الجِيَفَ وَبَقايا الحَيَوانَاتِ المَيتَةِ، وَلا يَصِيدُ بِبَراعةٍ، وَيُفَضِّلُ صَيدَ الطَّرائدِ الصَّغيرةِ مِنْ زَواحِفَ وَسَحالٍ، لِذا فَهُوَ يُعْتَبرُ مُفْتَرِساً ثانَوِيّاً، يَسْعَى وَرَاءَ الدَّجَاجاتِ الصَّغِيرةِ والطُّيورِ الضَّعيفَةِ، ويُتْلِفُ الثِّمَارَ اليانِعَةَ، تُسَاعِدُه قَوائِمُهُ الطَّويلَةُ عَلَى الوَثْبِ والرَّكْضِ السَّريعِ، وَتُعِينُهُ أَنْيابُهُ المَعْقوفَةُ عَلَى صَيدِ الطَّرائدِ الصَّغيرةِ، وتُعْرَفُ جَماعَتُهُ باسْمِ (بَنات آوَى)، وَهِيَ

حَيَواناتٌ لَيلِيَّةٌ تَنْشُطُ في فَتْرَتيِّ المَسَاءِ والفَجْرِ، وَتعِيشُ في أَزْواجٍ، لِكُلِّ زَوْجٍ مَنْطِقَتُهُما الخاصَّةُ يُدافِعانِ عَنها ضِدَّ الدُّخَلاءِ.

وتَتَجَمَّعُ (بَناتُ آوَى) في قِطْعانٍ صَغِيرَةٍ فِي بَعْضِ الأَحْيانِ لِتُقَمِّمَ جيفَةً كَبيرةً مَثَلاً، لَكِنَّها عَادَةً مَا تَصْطادُ وَحْدَها أَوْ فِي أَزْوَاجٍ.

تَذَكَّرَ كلَّ ذلك، فَاشْتَدَّ عَزمُهُ وصَاحَ: «عارٌ عَلَيَّ عَظيمٌ، بَلْ كُلَّ العَارِ، بَينَ مَعْشَرِ الثَّعالِبِ؛ أَنْ أَكونَ مِثلَ ابْنِ آوَى؛ آكُلُ الجِيَفَ النَّتِنَةَ، أَوْ أَنْ أَكونَ مِثْلَ الذِّئْبِ بِلا مَكْرٍ وحِيلَةٍ».

رَاحَ يُفَكِّرُ بِوَجْبَةٍ شَهِيَّةٍ دَسِمَةٍ؛ كَأَنْ يَقُودهُ حَظُّهُ إلى طَريقِ قِطْعانِ المَاعِزِ أَوْ الخِرفانِ. وهُنا تَذَكَّرَ بونزي جَدَّهُ مِنْ جَديدٍ، وَمَا كانَ يُحدِّثُهُ عَنْ عَالَمِ الخِرْفانِ ويَقولُ لَهُ: إِنَّ الذَّكَرَ مِنهُ خَروفٌ والأُنْثَى خَروفَةٌ، والجَمْعُ خِرافٌ وأَخْرِفَةٌ وخِرْفان.

وفي المَثَلِ: «كَالخَروفِ أَيْنَمَا اتَّكَأَ؛ اتَّكَأَ عَلَى صُوفٍ». وهوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلرَّفَاهِيَّةِ ونُعومَةِ العَيشِ. وَيَقولونَ: «خَروفٌ أَجْرَبُ يُعْدِي قَطِيعاً بِرُمَّتِهِ».

أَمَّا كَلِمَةُ (خِرْفان) فَهِيَ عَلَى النَّقاءِ وَصَفاءِ القَلْبِ وطَهَارَتِهِ، وَيُقالُ لِمَنْ لَهمْ هَذِهِ الصِّفاتُ: «مِثْلُ الخِرفَانِ».

وَمِنَ الأَمْثَالِ التي تَتَّصِلُ بِالخِرْفانِ:

«لا يَضُرُّ الشّاةَ سَلْخُهَا بَعْدَ ذَبْحِها»، و«كُلُّ شاةٍ بِرِجْلِها سَتُنَاطُ».

كمَا تَذَكَّر بُونزي قِصَّةَ الخَروفِ الضَّالِّ وَهوَ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوتِه: «مَاع... مَاع» بَعْدَ أَنِ ابْتَعَدَ عَنْ قَطِيعِهِ وَضَلَّ الطَّرِيقَ. ولمَّا اكْتَشَفَ زَعيمُ القَطيعِ غِيابَهُ؛ أَمَرَ مَجْموعَةً مِنَ الخِرفانِ الشَّبابِ الأَشِدَّاءِ بِالبَحْثِ عَنْهُ فَوراً، ولمَّا عَثَروا عَلَيهِ لمْ يُصَدِّقْ أَنَّهُ نَجا مِنَ الهَلاكِ، فَأَنَّبَهُ الزَّعيمُ وحَذَّرَهُ مِنْ مُخَالَفَةِ دُسْتورِ الآبَاءِ وَالأَجْدَادِ

مَرَّةً ثانِيةً، لأَنَّ «الذِّئْبَ يَفْتَرِسُ مِنَ الغَنَمِ القَاصِيَةَ»، أَي التي تَبْتَعِدُ عَنْ جَمَاعَةِ الخِرفَانِ. وَصَارَ يُرَدِّدُ: نَجَوْتُ هَذِهِ المَرَّةَ بِأُعْجوبَةٍ، وَمَا أَدْرَاني إِنْ كُنْتُ سَأَنْجُو فِي المَرَّةِ الثَّانِيَةِ.

وَعِندَما تَذكَّرَ الذِّئْبُ هَذِهِ القِصَّةَ أَصَابَهُ حُزْنٌ وَأَسًى، لأَنَّ الخِرْفانَ لَمْ تَعُدْ تَبْعُدُ كَثيراً عَنْ قِطْعانِها وَتَبْقَى فِي جَمَاعاتٍ، لاسِيَّما فِي مِثْلِ هَذِهِ اللَّيلَةِ القَاتِمَةِ.

واسْتَرْجَعَ أَيْضاً صُوَراً كَثيرةً مَضَتْ سَريعاً. صَارَ شَريطُ الذِّكْرَياتِ يَمُرُّ أَمَامَهُ مُتَتالِياً مُتَلاحِقاً، فَزَادَتْهُ الذِّكْرَياتُ والحكاياتُ زُهْداً بِذَلِكَ الفَأْرِ النَّحيلِ الَّذي مَرَّ أَمَامَهُ قَبْلَ قَليلٍ، وَقَدْ كَانَ بِمَقْدورِهِ صَيدُهُ وافْتِراسُهُ بِحَركَةٍ سَريعَةٍ وَبِلَمْحِ البَصَرِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعلْ، رَغْمَ عِلْمِهِ بِأَنَّ بَعْضَ الثَّعالِبِ مِنْ أَقْرانِهِ، ومَنْ هُمْ فِي مِثْلِ سِنِّهِ

بِالتَّحْديدِ؛ يُحِبُّونَ الفِئْرانَ ويَلْتَهِمونَها، ويَتَلَذَّذونَ بِأَكْلِها وَكَأَنَّها كَعْكَةٌ شَهِيَّةٌ.

كمَا كانَ يَعْلَمُ أَنَّ ثَعالِبَ الغَاباتِ والتِّلالِ والوِدْيَانِ وَالبَراري وغَيرَهمْ، هُمْ عَلَى مَرِّ التَّاريخِ وَالأَزْمَانِ؛ أَعْداءٌ تَقْليديُّونَ لِلفِئْرانِ عَلَى أَنْواعِها.

حتَّى أَنَّ البَعْضَ يَقولُ أَنَّهُمُ السَّبَبُ الرَّئِيسيُّ في مَوْتِ جَماعاتِ الفِئْرانِ سَريعاً، وَقَبْلَ أَوانِ مَوتِها الطَّبيعيِّ، حَيثُ يَسْتَسْلِمُ كُلُّ فَأْرٍ شَقِيٍّ لِمَصِيرِهِ الدَّامِي بَينَ فَكَّي ثَعْلَبٍ مُشاغِبٍ ذِي مَخالبَ حَادَّةٍ. لا سيَّما وأَنَّ ثَعالِبَ الغاباتِ الشَّرِسَةَ تَحْرصُ عَلَى أَنْ تَكونَ الفِئْرانُ مِنْ بَينِ وَجَباتِها اليَومِيَّةِ الدَّسِمَةِ.

وكَمْ مِنَ فُروقٍ كَبيرةٍ وصَغيرَةٍ تَنْشَأُ بَينَ الثَّعالِبِ التي يُعْنَى بِتَرْبِيَتِها مِنْ جِهَةٍ، وبَينَ الثَّعالِبِ الشَّارِدَةِ بِحُرِّيَةٍ مُطْلَقَةٍ لَا قُيودَ لَها مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، حَيثُ لا وَصِيَّ عَلَى الشَّوارِدِ مِنْها ولا مُرشِدَ لَها، ولا وَليَّ

يُطاعُ، تَعيشُ حُرَّةً، تَتَصَرَّفُ عَلَى مِزاجِها، وتَفْعَلُ مَا يَروقُ لَها دونَ حَدٍّ ولا مَانِعٍ، ولا حَسيبٍ أو رَقيبٍ، تَقودُها غَرائِزُها الحُرَّةُ المُنطَلِقَةُ بِحَماسَةٍ غَيرِ مُنْضَبِطَةٍ، مُتحَرِّرَةٍ مِنْ كُلِّ القُيودِ، تَتْبَعُ الغَرائزَ بِلا ضَوابِطَ ولا قِيَمٍ، تَحْكُمُها شَريعَةُ الغابِ التي لا يَحْلُو العَيْشُ فيها إِلّا بِالغَلَبَةِ، فَيُقالُ تَلْطيفاً: «إِنَّ البَقاءَ فِيها لِلأَقْوَى» ولَيسَ للأَوْفَى.

والثَّعْلَبُ بُونزِي بِطَبيعَةِ الحَالِ كَانَ ثَعْلَباً مُدَلَّلاً، وهوَ يَرَى نَفسَهُ أَكْبَرَ وأَهَمَّ مِنْ تِلكَ الثَّعالِبِ الشَّارِدَةِ. كانَتْ تُزعِجُهُ هَذِهِ التَّفاصِيلُ وَلا تَروقُهُ، فَهوَ يَعتَبرُ نَفسَهُ مِنْ طَبَقَةِ الثَّعالِبِ العُلْيا، تِلكَ الطَّبَقَةُ التي لَا تَتَنازَلُ عَنْ أَفْكارِها بِسُهُولَةٍ، فَلا تُعَرِّضُ نَفْسَها لِلتُّهَمِ.

هوَ يَسْعَى لِيَكونَ الأَفضَلَ، ولَولا ظُروفُ اللَّيلَةِ الصَّعبَةِ، لمَا خَرَجَ مِنْ وِجَارِهِ ولا وَقَعَ فِي مِثْلِ هَذِهِ المَهالِكِ، فَالجوعُ قَضِيَّةٌ لا تُحْتَمَلُ، وَقَدْ تَكونُ مُبَرِّراً

لِكُلِّ الأَفْعالِ في حُلْوِهَا وَمُرِّها. لَكِنْ أَنْ يَتواضَعَ إلى هَذا الحَدِّ ويَسْعَى نَحوَ أَكْلِ الفِئْرانِ المُقَزِّزَةِ، فَهَذا أَمْرٌ لَنْ يَكونَ.

إنَّ جوعَهُ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ إلى هَذا الحَدِّ، غَيرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَوَقَّعْ ـ طَبْعاً ـ ما سَيَؤولُ إِلَيهِ مَصيرُهُ، ومَا قَدْ يَحدُثُ لاحِقاً، فَصَارَ يُرَدِّدُ في نَفْسِهِ: «عَلَى الأَقَلِّ نَعْجَةٌ سَمِينَةٌ شَهِيَّةٌ».

وكانَتِ الطَّبِيعَةُ تُجِيبُهُ بِصَمْتٍ: أَيُّها الباحِثُ عَنِ الأَمَلِ بِغَباءٍ؛ مِنْ أَينَ تَأْتِي النِّعاجُ فِي هَذِهِ اللَّيلَةِ المَطيرَةِ؟! والنِّعاجُ تَحْفَظُ قِصَّةَ الخَروفِ الضَّالِّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

مَضَى بونزي مُسْتَعيداً مَشْهَدَ الفَأْرِ المُتَجَمِّدِ فِي مَكانِهِ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ عِنْدَما وَجَدَ نَفْسَهُ وَجْهاً لِوَجْهٍ أَمَامَ الثَّعْلَبِ.

وَلَمَّا مَرَّ الثَّعْلَبُ إلى جَانِبِهِ مُرورَ الكِرامِ، أُصِيبَ

الفَأْرُ بِصَدْمَةٍ أُخْرَى، لَكِنَّها كَانَتْ صَدْمَةُ فَرَحٍ بِنَجاتِهِ مِنْ مَوتٍ مُحَتَّمٍ.

كانَ إِحْسَاسُ الفَأْرِ بَعْدَها أَنَّهُ مَحْظُوظٌ جِدّاً لأَنَّ عُمراً جَديداً كُتِبَ لَهُ.

صَارَ يَقْفِزُ وَيَرقُصُ مَسْروراً مِنَ الدَّهْشةِ والفَرَحِ، دُونَ أَنْ يَلمَحَ قَرصَةَ الجُوعِ وَتَعَبَ السَّفَرِ وَحُمرَةَ السَّهَرِ فِي عَينيِّ الثَّعْلَبِ.

كمَا أَنَّ لَونَ فَروِ الثَّعْلَبِ الجَميلِ البَرَّاقِ لم يُثِرْ إِعْجَابَهُ، بَلْ كانَ جُلُّ هَمِّهِ مُرَكَّزاً فَقَط عَلَى بَريقِ أَسْنَانِهِ وَلَمْعَةِ مَخَالِبِهِ. عِلْماً أَنَّ الفِئْرانَ لا تَسْتَطيعُ تَمْييزَ الأَلْوانِ إِطْلاقاً، لَكِنْ بِإِمْكانِها تَمييزُ تَدَرُّجِها بِلَونَينِ فَقَط؛ مِنَ الأَسْوَدِ الكَالِحِ السَّوادِ إلى الأَبيَضِ النَّاصِعِ البَياضِ.

وتَابَعَ بونزي طَريقَهُ دُونَ أَيِّ اكْتِراثٍ بِالفَأْرِ أَوْ بِجَمَاعَةِ الفِئْرانِ.

فَهوَ يُؤمِنُ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيهِ أَلَّا يُتْعِبَ تَفكيرَهُ ويَتوقَّفَ وُيشْغِلَ النَّفْسَ بِتَوافِهِ الأُمُورِ وَصَغَائِرِها، فِيما هوَ يَحلُمُ بِفَرائسَ كَبيرةٍ.

لَكِنْ هَلْ غابَ عَنْ فِكْرِهِ أَنْ لَيسَ كلُّ ما يُحْلَمُ بِهِ لا بُدَّ وأَنْ يَكونَ مُحَقَّقاً.

وُهنَا عَادَ وتَذَكَّرَ بُونْزِي قِصَّةً أُخْرَى رَواهَا لَهُ جَدُّهُ تَنْتَقِدُ غُرورَ بَعْضِ الثَّعالبِ الصِّغارِ، وهي قِصَّةٌ حَكاها الكاتِبُ الشَّهيرُ جُبرانُ في إِحْدَى كِتاباتِهِ المُعَرَّبَةِ.

وتَقولُ: إنَّ الثَّعْلَبَ خَرَجَ مِنْ مَأْواهُ عِنْدَ شُروقِ الشَّمْسِ، فَوَقَفَ مَذهولاً عِندَما رَأَى ظِلَّهُ الكَبيرَ بِسَبَبِ انْحِناءِ الشَّمسِ، فَقَالَ: سَأَتَغَدَّى اليَوم جَمَلاً.

ثمَّ مَضَى فِي سَبيلِهِ يُفَتِّشُ عَنِ الجِمالِ، وَعِنْدَ الظَّهِيرَةِ تَفَرَّسَ في ظِلِّهِ ثَانِيَةً، وقالَ مُسْتَصْغِراً حَجْمَ ظِلِّهِ: «إِنَّ فَأْرَةً واحِدَةً تكفِيني!».

والحِكْمَةُ تَقولُ: «مَنْ يَمْتَطي جَمَلَ جَارِهِ لا يَصِلُ

إلى دارِهِ». فَكَيفَ بِمَنِ امْتَطى صَهْوَةَ ظِلِّهِ واهِماً بِضَخامَتِهِ، وراحَ يَبْحَثُ عَنْ جَمَلٍ يَبْلُغُ أَضْعَافَ أَضعافِ حَجْمِهِ الحَقِيقيِّ؟!

ازدَادَ الثَّعْلَبُ بُونزي مَعَ مُضِيِّ الوَقْتِ وَجَعاً مِنْ قَرْصَةِ الجوعِ، والوَجَعُ والجُوعُ كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ على اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ عَلى المَعِدَةِ، مُخْتَلِفَتانِ فِي المَعْنَى، مُؤتَلِفَتَان في الحُروف. لَكِنَّهُمَا في الحَالَينِ مُخِيفَتَانِ في فِعْلِهِمَا وَقَصْدِهِمَا الوَاحِدِ، وَلا يَعرِفُ هَوْلَ الأَلمَ قَدْرَ مَنْ يُعَانِيهِ ويُكابِدُهُ، ومَنْ يَعُدُّ العِصيَ وهي تَلْسَعُ الجَسَدَ لَيسَ كَمَنْ يَأكُلُ لَسْعَها، ومَنْ سَمِعَ وَرَأَى لَيسَ كَمَنْ جَاعَ وانْبَرَى، فَهَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً؟!

ومَضَى الوَقْتُ دُونَ أَنْ يَعْثُرَ بُونزي عَلَى فَرِيسَةٍ شَهِيَّةٍ تَتَناسَبُ مَعَ مُسْتَوَى تَمنِّياتِهِ وطُموحاتِهِ.

وَمَعَ مُضيِّ الوَقْتِ بَدَأَ النَّدَمُ يَتَسرَّبُ إلى نَفسِهِ لأَنَّهُ

لَمْ يَنْقَضَّ عَلَى الفَأْرِ الرَّمادِيِّ عِندَما كانَتِ الفُرصَةُ سانِحَةً أَمامَهُ.

أَيْقَنَ أَنَّ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ تَتواضَعَ قَليلاً.

ثُمَّ قَالَ: حَبَّذا لوْ وَجَدْتُ الآنَ أَرنَباً ضَعيفاً أَوْ دِيكاً عَجوزاً، أَوْ كَتكوتاً صَغيراً.

كَانَ الوَقتُ يَمرُّ، وكانَتْ أَحْلامُ الثَّعْلَبِ بونزي تَصْغُرُ مَعَ مُرورِ الوَقْتِ.

بَحَثَ هُنا وَهُنَاك، نَزَلَ وَصَعَدَ وَانْخَفَضَ وَتَسَلَّقَ، مَا تَرَكَ وَادِياً إِلّا نَزَلَهُ وَلا جَبَلاً صَغِيراً وَكَبيراً إِلّا وَصَعَدَهُ، حتَّى أَصَابَهُ وَهَنٌ شديدٌ، فَأَلْقَى بِجَسَدِهِ الضَّعيفِ المُنهَكِ عَلَى جِذْعِ شَجَرةٍ فَدَهَمَتْهُ نَومَةٌ خَفِيفةٌ.

وفي مَنَامِهِ رَأَى أَنَّهُ أَصْبَحَ زَعيماً لِلثَّعالِبِ، وأَنَّ الأَرانِبَ طَلَبَتْ مِنْهُ لِقَاءً عاجِلاً رَغْمَ مَا بَينَها وَبَينَ الثَّعالِبِ مِنْ عَداوةٍ قَديمَةٍ، فَوَافَقَ عَلَى عَجَلٍ يُمَنِّي نَفْسَهُ

بِعَشَاءٍ لَذِيذٍ، وَكانَتِ الأَرانِبُ تُريدُ عَقْدَ اتِّفاقٍ مَعَ الثَّعالِبِ لِتَعيشَ فِي الغَابَةِ فِي سَلامٍ وَأَمانٍ.

فَقامَ الثَّعْلَبُ الزَّعيمُ واسْتَدْعَى رَعِيَّتَه مِنْ كُلِّ مَكانٍ، وأَمَرَهُمْ بِالاخْتِباءِ بَينَ الأَشْجَارِ وخَلفَ الصُّخورِ، دُونَ أَنْ تَدْرِيَ الأَرانِبُ أَنَّها سَعَتْ إلى حَتْفِها بِأَقْدامِها، واسْتَقْبَلَهُمُ الزَّعيمُ ضَاحِكاً مُسْتَبْشِراً.

سُرَّتِ الأَرانبُ بِهَذا الاسْتِقْبالِ الحَافِلِ، وَرَاحَتِ الأَرَانبُ الطَّائِشَةُ مِنْ بَينِها تَتَمَلَّقُ زَعيمَ الثَّعالِبِ، وَتَعِدُهُ بِأَنَّها سَتَكونُ بِخِدْمَتِهِ وَتُساعِدُهُ عَلَى الفَتْكِ بِالحَيَواناتِ الأُخْرَى شَرْطَ أَنْ تَتْرُكَها الثَّعالِبُ في أَمَانٍ وَسَلامٍ، وصَارَ الزَّعيمُ يَهُزُّ رَأْسَهُ طَرَباً، فَظَنَّتِ الأَرانِبُ أَنَّ زَعيمَ الثَّعالِبِ مُعْجَبٌ بِكلامِها.

كانَتِ الطُّيورُ تَسْتَمِعُ إلى مَا تَقولُهُ الأَرَانبُ، فَسارَعَتْ وَنَشَرتِ الخَبَرَ فِي أَنْحَاءِ الغَابَةِ، فَغَضِبتْ كُلُّ الحَيَواناتِ مِمَّا فَعَلَتْهُ الأَرانِبُ.

وَفَجْأَةً أَشارَ الزَّعيمُ بِيَدِهِ إِشارةً تَعْرِفُها الثَّعالِبُ؛ فَانْقَضَّتِ الثَّعَالِبُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ تَفْتَرِسُ الأَرَانِبَ المِسْكِينَةَ الوَاهِمَةَ، وَعِنْدَما سَمِعَتِ الحَيوَاناتُ اسْتِغاثَةَ الأَرَانبِ؛ رَفَضَتْ إِنْقَاذَها لأَنَّها أَرَادَتْ أَنْ تُؤذِيَها.

وَمُنذُ ذَلكَ الزَّمانِ وَسَائِرُ الأَرانبِ نَادِمَةٌ عَلَى مَا فَعَلَهُ أَجْدَادُها، وَلَمْ تُفَكِّرْ مَرَّةً ثَانِيَةً بِدَعْوَةِ الثَّعالِبِ إلى اتِّفاقٍ.

وَبَذَلَتْ جَماعاتُ الأَرانِبِ بَعدَ ذَلكَ جُهْداً عَظيماً وَهي تُحَاوِلُ إِصْلاحَ مَا أَفْسَدَهُ بَعْضُ أَبناءِ جِنْسِها، بَينَها وبَينَ سَائِرِ حَيَواناتِ الغَابَةِ.

فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، انْتَفَضَ الثَّعْلَبُ مِنْ نَومِهِ خَائِفاً مُرْتَعِداً، جَائِعاً، حَزيناً، بائساً.

لَمْ يُدْرِكْ تَمَاماً سَبَبَ حَالَةِ الفَزَعِ التي انْتابَتْهُ وأَيْقَظَتْهُ مِنْ نَوْمِهِ العَميقِ.

رُبَّما سَمِعَ صَوتَ بُومَةٍ مُتَوارِيَةٍ بَينَ أَغصانِ الأَشْجَارِ وَأَوراقِها. والبومَةُ طَائِرٌ خَطِيرٌ، تَخْشاهُ الثَّعالِبُ.

عَادَ بونزي مِنْ جَديدٍ إلى الحَادِثَةِ التي أَنْهَتْ حَيَاةَ جَدِّهِ، فَصَارَتْ أَطْرافُهُ تَهْتَزُّ وأَسْنانُهُ تَصْطَكُّ مِنْ شِدَّةِ الرُّعْبِ لا مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ.

وَحَاوَلَ مِنْ جَديدٍ أَنْ يُلْهِيَ نَفْسَهُ بِبَعْضِ الأَفْكَارِ وَالقِصَصِ.

وَبَدَأَ يَسْتَعيدُ مَا قَرَأَهُ يوماً أَنَّهُ عِنْدَ غُروبِ الشَّمْسِ، تَكُفُّ مُعْظَمُ الطُّيورِ عَنْ نَشاطِها، وتَلْجَأُ إلى أَعْشاشِها

لِقَضاءِ اللَّيلِ. لَكِنَّهُ تَذَكَّرَ أَيْضاً أَنَّهُ مِنْ بَينِ مَا قَرَأَهُ أَنَّ البومَ يَهُمُّ مَعَ بدْءِ هَذا الوَقْتِ بِالبَحْثِ عَنْ طَعامٍ.

والبُومُ ـ كَما يَعْلَمُ جَميعُ الثَّعالِبِ ـ مِثْله تَماماً مِنَ المُفتَرِساتِ الحَذِرَةِ، تُعاينُ فَرائِسَها مُسْتَخدِمَةً حاسَّتي النَّظَرِ والسَّمعِ القَوِيَّتَينِ إلى حَدٍّ أَقْصَى، وَمَا أَنْ تُحدِّدَ فَرِيسَتَها، حَتَّى تَنْقَضَّ عَلَيها لِتُمْسِكَها بِمَخالِبِها الحادَّةِ.

وَمَنْ أَخْبَرُ مِنْ بونزي بِذَلِكَ وقِصَّةُ جَدِّهِ لا تَزالُ حَيَّةً أَمامَ عَينَيهِ؟!

كَما أَنَّ بَعْضَ البُومِ يَكْتَفي بِفَرائسَ صَغيرةٍ، مِثْل فَرَاشِ اللَّيلِ، وتَسْتَطيعُ الأَكبَرُ حَجْماً، مِثْل البومَةِ القَرْناءِ التي قَضَتْ عَلَى جَدِّهِ المِسْكينِ؛ اصْطِيادَ حَيَوَانٍ بِحَجْمِ غَزالٍ.

وإنْ كانَ مُعْظَمُ البُومِ لَيلِيّاً، فَإِنَّ بَعضَهُ يَصْطادُ نَهاراً، مِثْلَ البُومَةِ البَيضَاءِ، التي تَعيشُ فِي المَناطِقِ

القُطْبِيَّةِ الشَّمالِيَّةِ، حَيثُ الظُّلْمَةُ لَيْسَتْ كَامِلَةً تَماماً فِي أَشْهُرِ الصَّيفِ.

وَفَشلَتْ كُلُّ مُحَاوَلاتِ بُونْزِي لِيُبْعِدَ تَفْكيرَهُ عَنْ مَخَالِبِ البُومَةِ الشَّرِسَةِ.

كَانَ قَلْبُهُ يَنْبضُ بِقُوَّةٍ، فَبَعْدَمَا كَانَ يَبْحَثُ هُوَ عَنْ فَرِيسَةٍ، هَلْ يُصْبحُ هُوَ نَفْسُهُ فَرِيْسَةَ البُومَةِ؟!

فَراحَ يَقولُ في نَفْسِهِ: «يا وَيْلِي! يَا مُصِيبَتي!».

وَهَرَعَ يَبحَثُ عَنْ مَلْجَأ يَقِيهِ شَرَّ البُومِ. اخْتَبَأَ خَلفَ أَوَّلِ صَخْرَةٍ صَادَفَها أَمَامَهُ.

قالَ: «لا حِيلَةَ لِيَ اليَوم، لا مَفَرَّ مِنَ اللُّجوءِ إلى صَديقِي الذِّئْبِ، فَوِجَارُهُ قريبٌ مِنْ هُنا، وَلَعَلِّي آوِي إِلَيهِ مَا بَقِيَ مِنْ لَيلٍ، وَقَدْ أَجِدُ عِنْدَهُ بَقايَا فَرِيسَةٍ تَرَكَها لِشَبَعٍ أَوْ ضَيفٍ، أَو زَائِرٍ بِلَيلٍ».

سَارَ بُونِزي بِخِفَّةٍ وَحَذَرٍ عَلَى رُؤوسِ «أَصَابِعِهِ» قاصِداً وِجَارَ ابْنِ عَمِّهِ الذِّئْبِ.

كانَ يَمْشي بِحِرْصٍ خشْيَةَ لَفْتِ الانْتِباهِ إِلَيهِ، حَتَّى أَنَّهُ كَتَمَ أَنْفاسَهُ، وَكانَ يَقْطَعُهُ تَماماً مِنْ حِينٍ إلى آخَرَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَحسِبْ حِسَاباً لِلأَرْضِ الرَّطبَةِ المُشَبَّعَةِ بِمَاءِ المَطَرِ، فَغارَتْ أَطْرَافُهُ في تُرْبَةٍ مُوحِلَةٍ، ولمْ يَقْدِرْ عَلَى السَّيْطَرَةِ عَلَى نَفْسِهِ، وغاصَ في عُمْقِها حَتَّى اخْتَفَى لِلَحَظاتٍ تَحتَ المَاءِ المَعْجُونِ بِالتُّرابِ.

قَامَ الثَّعْلَبُ مِنْ نَكْبَتِهِ الجَديدَةِ، كانَ مَنْظَرُهُ مُضْحِكاً، قَامَ مِنْ وَقْعَتِهِ يَنْفُضُ الوَحْلَ عَنْ فَروِهِ.

ثمَّ سارَ في طَريقِهِ مِنْ جَديدٍ، وَعَلَى وَجْهِهِ عَلامَاتُ الغَضَبِ الشَّديدَةُ. وبَقِيَتْ بُقَعُ الوَحْلِ تُلَطِّخُ شَعْرَهُ الجَميلَ، رَغْمَ المَاءِ المُنْهَمِرِ بِشِدَّةٍ مِنَ السَّماءِ دونَ انْقِطاعٍ، وَكُلَّما دَفَقَ المَاءُ أَكثَرَ كانَ غضبُه يزدادُ أكثر.

لمْ يجدْ مَفَرّاً مِنَ الإسْرَاعِ والرَّكْضِ الواثِبِ بَعْدَما ابْتَعَدَ عَنِ البُومَةِ، وفَقَدَ الأَمَلَ بالعُثورِ عَلَى أَيِّ فَريسَةٍ،

قَاصِداً مَا عَزَمَ عَلَيهِ مِنْ هَدَفٍ، فَلا بُدَّ مِنَ الوُصولِ إلى وِجَارِ الذِّئْبِ، آمِلاً أَنْ يَسْتَقْبِلَهُ الذِّئْبُ فِيمَا تَبَقَّى مِنْ هَذِهِ اللَّيلَةِ المُرعِبَةِ.

كانَ يَتَمَنَّى مُسَاعَدَةَ الذِّئْبِ لَهُ، فَهوَ الوَحيدُ الذي يَعْرِفُهُ في هَذا المَكانِ الذي هوَ فيهِ، خاصَّةً أَنَّ الذِّئْبَ مِنْ فَصيلَتِهِ ـ الكَلبيَّاتِ ـ نَفْسِها التي يَنْتَمِي إِلَيها، لِذا فَقَدْ كانَ ظَنُّهُ بِهِ حَسَناً، مُعْتَقِداً أَنَّهُ سَيَكونُ عَوْناً لَهُ فِي مِحْنَتِهِ.

وَفِيما هُوَ يَمْضي في طَريقِهِ تَذَكَّرَ قِصَّةً سَمِعَها يَوماً مِنْ أُمِّهِ فِي أَيَّامِ طُفولَتِهِ الأُوْلى عَنِ الثَّعْلَبِ الصَّغِيرِ وَالذِّئْبِ الكَهْلِ.

تَقولُ القِصَّةُ الشَّهيرَةُ: إِنَّ (ضُغبوساً) الْتَقَى يَوماً ثَعْلَباً مُجرِّباً مُحَنَّكاً، فَقالَ لَه: يا أَيُّها الذِّئْبُ، عَلِّمْني كَيْفَ أَعِيشُ فِي هَذِهِ الحَياةِ؟

فَتَبَسَّمَ الذِّئْبُ هازِئاً وَقَالَ قَولَةَ المُجَرِّبِ الحَكيمِ: اذهَبْ واقْفِزْ مِنْ فَوقِ تلكَ التَّلَّةِ.

لَكِنَّ الثَّعْلَبَ الصَّغيرَ أَجَابَهُ مُتَعَجِّباً: سَوفَ تَنْكَسِرُ إِحْدَى قَوائِمِي!

قالَ الذِّئْبُ بِمَكْرٍ: لا تَقْلَقْ، سَأُمْسِكُ بِكَ.

صَدَّقَهُ الثَّعْلَبُ الصَّغيرُ القَليلُ الخِبرَةِ، فَقامَ وقَفَزَ رَغْمَ تَرَدُّدِهِ، فَسَقَطَ مِنَ التَّلَّةِ وكُسِرَتْ قائِمَتُهُ الأَمامِيَّةُ كَما تَوَقَّعَ.

فَقالَ لَهُ بِبراءَةٍ: لَقَدْ قَفَزْتُ كَما طَلَبْتَ مِنِّي، لَكِنَّكَ لَمْ تُمْسِكْ بي!

عِنْدَها صَاحَ الذِّئْبُ ضاحِكاً بِسُخْرِيَةٍ: هَذا أَوَّلُ دَرْسٍ أُعَلِّمُكَ إِيَّاهُ! إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَثِقَ بِالمَاكِرينَ!

خافَ الثَّعْلَبُ عِنْدَمَا تَذَكَّرَ هَذِهِ القِصَّةَ، وَفَكَّرَ بِأَنْ يَعودَ أَدْرَاجَهُ.

لَكِنَّ الرِّيحَ اشْتَدَّتْ حَركتُها، وَكَادَتْ تُطَيِّرُهُ عَنِ

الأَرْضِ، فَخَشِيَ أَنْ تَحْمِلَهُ الرِّيحُ وَتُلْقِيَهِ فِي الوَادي العَميقِ، فَلا يُسْمَعُ لَهُ صَوتٌ ولا صَدًى بَعْدَ ذَلكَ، أَوْ تَقْذِفَهُ فَوقَ صَخرَةٍ فَتَتَكَسَّرُ عِظَامُهُ كُلُّها.

فَقالَ: أَهْوَنُ عَلَيَّ أَنْ تَتَكَسَّرَ قَوائِمِي كُلُّها مَعَ الذِّئْبِ مِنْ أَنْ تَتَكَسَّرَ عِظَامِي عَظْمَةً عَظْمَةً مَعَ الرِّيحِ.

لَكِنَّ بَيْتَ الذِّئْبِ صَارَ بَعيداً، فَقَدْ ضَلَّ الطَّريقَ، ويَخْشَى أَنْ تَراهُ البُومَةُ في طَرِيقِ عَودَتِهِ، ويَكادُ اللَّيلُ يَنْجَلي، والصُّبْحُ آتٍ عَنْ قَريبٍ لا ريبَ فِي ذَلكَ، وعِنْدَما يَطْلُعُ النَّهارُ سَيَعودُ فَوراً إلى مَسْكَنِهِ.

فلا بأسَ من أنْ يُجرِّب حظَّه للمرة الأخيرة، رغْمَ أنَّ حَظَّهُ العَاثِرَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ مُنذُ بِدايةِ هَذِهِ اللَّيلةِ التَّعيسَةِ الصَّاخِبَةِ.

١١ ـ شَجَرَةُ الجَوْزِ والصَّخْرَةُ الصَّمّاءُ

أَخَذَ الثَّعْلَبُ يَبْحَثُ عَنْ دَليلٍ يُرشِدُهُ إلى بَيتِ الذِّئْبِ، ولَمْ يَهْتَدِ إلى أَنَّهُ لَمَحَ شَجَرةَ جَوزٍ قَديمَةً جِدّاً، وَالجَوزُ يَعيشُ مِئاتِ الأَعْوام، وكانَتِ الشَّجَرَةُ شَديدَةَ الضَّخامَةِ، وجِذْعُها عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ كَبيرٍ، تَتَدَلَّى أَغْصانُها حَتَّى تُلامِسَ الأَرْضَ.

عِنْدَما شاهَدَ الثَّعْلَبُ بُونزي شَجَرةَ الجَوزِ، فَرِحَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنذُ خُروجِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ أَوَّلَ اللَّيلِ، واطْمَأَنَّ قَلْبُهُ قَليلاً لأَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ سَتَقودُهُ بِسهولَةٍ إلى وِجَارِ الذِّئْبِ، وَعَلَيهِ الآنَ أَنْ يَسْتَكينَ قَليلاً، ويَهْدَأَ اسْتِعداداً لِملاقاةِ الثَّعْلَبِ، وكانَ يُفَكِّرُ بِأَنَّ الثَّعْلَبَ هَذا كانَ صَديقاً لأَبِيهِ، وقَدِ اسْتَضافَهُ في زَمَنٍ بَعيدٍ وأَقامَ لَهُ

ولِيمَةً كَبيرَةً، تَضمُّ بَعضَ الأَرَانِبِ والجَرابيعِ، ونَعْجَةً سَمينَةً كَثيرةَ اللَّحمِ والشَّحْمِ.

وظَنَّ أَنَّ الثَّعْلَبَ لا بُدَّ أَنْ يُكْرِمَهُ إكْراماً لأَبِيهِ، وَمِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ والعَناءِ والإرْهاقِ؛ دَعَتهُ نَفْسُهُ للجلوسِ قَليلاً، وأَنْ يُسْنِدَ ظَهرَهُ إلى جِذْعِ الشَّجَرَةِ، ما دامَ مُنْقِذُهُ ـ الذِّئْبُ ـ أَصْبَحَ قَريباً مِنْ هَذا المَكانِ.

لَمَحَ الثَّعْلَبُ صَخْرَةً مَلْسَاءَ مُقَوَّسَةَ الجانِبَينِ عَلَى طَرَفِ الجذْعِ الذي يُشْبِهُ مُثَلَّثاً ذا أَطْرافٍ حادَّةٍ، فَجَلَسَ عَلَى «الصَّخْرَةِ» وأَسْنَدَ ظَهْرَهُ عَلَى جانِبٍ مِنْ جِذْعِ الشَّجَرَةِ، مُلْقِياً تَعَبَهُ كُلَّهُ عَلَى حَنَانِ شَجَرةِ الجَوزِ العَتِيقَةِ.

شَعَرَ بونزي أَنَّ الأَمْرَ لَيسَ طَبيعيّاً.

أَحَسَّ بِأَنَّ ظَهْرَهُ يَنْزَلِقُ عَنِ الشَّجَرةِ، فَأَمْسَكَ بِحشَائِشِ الأَرضِ الرَّطبَةِ، ثمَّ قَفَزَ هائِجاً مُنْدَهِشاً، والْتَفَتَ بِسُرعَةٍ نَحْوَ الصَّخْرةِ التي كانَ يَجْلِسُ عَلَيها،

لِيَكتَشفَ أَنَّها لَمْ تَكُن بِصَخْرَةٍ ولا أَيِّ جَمَادٍ آخَرَ، فَقَد كَانَتْ «سُلْحُفاةً» كَبيرَةَ الحَجم، عَظيمَةَ القَوقَعَةِ، يَبدو أَنَّها مِنَ السَّلاحِفِ المعَمَّرَةِ، أَي التي تَعيشُ طَويلاً.

لَمْ يَسْتَطِعْ بُونزي كَتْمَ ضِحْكَةٍ عالِيَةٍ ساخِرَةٍ عَلَى الحَالِ التي أَمْسَى عَلَيها، والتي أَفْقَدَتْهُ التَّمْييزَ مَا بَينَ الصَّخْرِ الصَّلْبِ وظُهورِ السَّلاحِفِ النَّاعِمَةِ المَلْمَسِ.

نَظَرَتْ إِليهِ السُّلْحُفاةُ بَعْدَ أَنْ أَيْقَظَها مِنْ سُباتِها وأَزْعَجَ رَاحَتَها، فَعَاتَبَتهُ عَلَى إِيقاظِهِ لَها في هَذِهِ اللَّيلَةِ البارِدَةِ المَطيرَةِ، ثمَّ سَأَلَتْهُ عَمَّا يَفْعَلُ هاهنا خَارِجَ بَيتِهِ، في هَذِهِ الأَجْوَاءِ العاصِفَةِ، وفي هَذا الوقْتِ المُتَأَخِّرِ مِنَ اللَّيلِ.

أَخْبَرها الثَّعْلَبُ بِقِصَّتِهِ، فَرَاحَتْ تَضْحَكُ طَويلاً ثمَّ قالَتْ وَصَوتُها تَقطَعُهُ الضَّحِكاتُ: عُذْراً أَيُّها الثَّعْلَبُ المِسْكينُ، أَحْمَدُ اللهَ أَنَّهُ مَنَحَني بَيتاً صَلْباً عَلَى ظَهْري

قَوِيّاً، لا يَتَكَسَّرُ بِأَسنانِكَ، وإِلّا لَكُنْتُ الآنَ أَوَّلَ أَهْدافِكَ، وأَشْهَى طَعامِكَ، وَمَصْدَرَ شَبَعِكَ.

فَأَجابَها الذِّئْبُ: لا يُمْكِنُ هَذا أَيَّتُها السُّلْحُفاةُ العَزيزَةُ، فَنَحْنُ ـ مَعْشَرَ الثَّعالِبِ ـ أَصْدِقاءُ لِلسَّلاحِفِ، ومُنذُ مَتَى تَأْكُلُ الثَّعالِبُ السَّلاحِفَ؟!

قَالَتْ: يا صَديقِي العَزيز، أَنْتَ قَويٌّ بِمَخالِبِكَ وأَسْنَانِكَ، وَأَنَا أَقْوَى مِنْكَ بِالثِّقَلِ الذي أَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِي، بِرَغْمِ ضَعْفِي، فَهوَ درْعِيَ الحامِي الذي لا أَخْرُجُ مِنهُ أَبَداً، فَلَولا هَذا الدِّرْعُ المَنيعُ لأَكَلَتْني أَصْغَرُ الحَيَواناتِ، وحَتَّى البَراغِيثُ، مَصَّتْ دَمي حَتَّى المَوتِ.

ثمَّ تابَعَتْ تَقولُ: لا بَأْسَ عَلَيكَ الآنَ، لا بَأْسَ، اعْذُرْني فَلَيسَ بيَدي حِيلَةٌ. اصْبِرْ حَتَّى يَطْلُعَ النَّهارُ.

فَقالَ الثَّعْلَبُ: لا صَبْرَ لِي بَعْدَ الآنَ، سَأَذْهَبُ إلى بَيتِ صَديقِيَ الذِّئْبِ.

ضَحِكَتِ السُّلْحُفاةُ مَرَّةً ثانِيَةً قائلَةً: أَيُّها الثَّعْلَبُ، هَلْ أَنْتَ مَجْنون؟ وبِماذا سَيُفيدُكَ صَديقُكَ الذِّئْبُ كَمَا تُسَمِّيهِ؟

قالَ: بَيْنَنا مَعرِفَةٌ وصَدَاقَةٌ قِديمَةٌ.

عَادَتْ تَضْحَكُ وتَقولُ هازِئَةً: فِعْلاً فِعْلاً. إِنَّها لَصَداقَةٌ جَميلَةٌ، تَجمَعُ نُخْبَةَ المَاكِرينَ. هيّا أَسْرِعْ إِذاً، أَمْ تُرِيدُ أَنْ نُجْرِيَ سِباقاً بَيني وبَينَكَ؟ ولا تَظُنَّ أَنَّ سُرْعَتَكَ فِي الجَرْيِ سَتَسْبِقُ بُطْئِي في الزَّحْفِ، فَلَطالَما حَدَّثَتْنا القِصَصُ عَنْ أَنَّ السَّلاحِفَ المُثابِرَةَ سَبَقَتِ الأَرانِبَ الكَسولَةَ.

قالَ لَها: وهَلْ تُصَدِّقِينَ هَذِهِ القِصَصَ أَيَّتُها السُّلْحُفاةُ؟

قَالَتْ بِسُخْرِيَةٍ: إِذا كُنْتَ لا تُصَدِّقُها؛ فَلِمَاذا لا تَجْرُؤُ عَلَى قَبولِ عَرْضي بِأَنْ تُسابِقَني الآنَ وعَلَى الفَورِ، نُجْرِي سِباقاً بَيني وبَينَكَ، مِنْ هُنا إلى وِجَارِ

صَديقِكَ الذِّئْبِ، لِنَرَى مَنْ سَيَصِلُ أَوَّلاً، ومَنْ يَسْبِقُ يَكونُ الفائِزَ، وسَوفَ نَتَأَكَّدُ حِينَها ما إذا كانتِ القِصَصُ التي تُحْكَى؛ صَادِقَةً أَمْ مِنْ نَسْجِ الخَيَالِ.

كَانَتِ السُّلْحُفاةُ تَسْخَرُ منهُ بِشِدَّةٍ، وبِكُلِّ جُرْأَةٍ إلى حَدِّ الوَقاحَةِ، غَيرَ عَابِئَةٍ بِهِ وَبِاحْتِيالاتِهِ، وبِآلامِهِ التي يُسَبِّبُها الجُوعُ، فَقَدْ كانَتْ واثِقَةً تَماماً بِسَلامَتِها مِنْ أَيِّ ضَرَرٍ، فَهيَ تَعلَمُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطيعُ أَنْ يُؤذِيَها بَتاتاً بِفَضْلِ قُوَّةِ دَرْعِها الصَّلْبِ التي تُسَمَّى (قَوْقَعَة).

كَانَتْ تَشْعُرُ بِزُهوٍّ كَبيرٍ وهيَ تَرَى الثَّعْلَبَ يَتَلَوَّى مِنَ أَلمِ الجُوعِ، فَهيَ لَا تُحِبُّ الحَيَواناتِ اللَّاحِمةَ، لأَنَّها تَقْتُلُ المَخْلوقاتِ الحَيَّةَ الضَّعيفَةَ حَتَّى تَمْلأَ مَعِدَتَها، وَكَانَتْ تَتَمَنَّى لَوْ كانَ كُلُّ حَيَوانٍ في الغَابَةِ مِثْلَها، يَعيشُ عَلَى النَّباتاتِ والحَشائِشِ فَقَط. فَكُلُّ مُفْتَرِسٍ آكِلٍ لِلَحْمٍ مُتَوَحِّشٌ في طَبْعِهِ، بَينَما آكِلُو الحَشَائِشِ والنَّباتاتِ الخَضراءِ لُطَفاءُ مُسَالِمونَ.

كانَ الثَّعْلَبُ مُمْتَعِضاً أَشَدَّ الامْتِعاضِ. شُعُورٌ فَظِيعٌ مَخْلوطٌ مَا بَينَ المَرارَةِ والأَلَمِ، أَنْ يَتَعَرَّضَ حَيَوانٌ شَرِسٌ مُفْتَرِسٌ لِلذَّمِّ ولِلسُّخْرِيَةِ الهادِئَةِ مِنْ سُلْحُفاةٍ صَغيرَةٍ ضَعيفَةٍ داخِلَ قَوْقَعَةٍ، وَمَعَ ذَلكَ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَفْعَلَ أَيَّ شَيءٍ حِيَالَهَا.

قالَ لَها: عَلَى أَيِّ حَالٍ، أَنْتِ تَفْخَرِينَ بِبَيتِكِ الثَّقيلِ، حَتَّى أَنَّكِ تَبيتِينَ مُعْظَمَ الشِّتاءِ في داخِلِهِ دونَ أَيِّ حَرَكَةٍ، كَما أَنَّكِ تَتَحَرَّكينَ بِبُطْءٍ شَديدٍ، فَلِمَاذا لا تَخْلَعِينَ عَنْكِ هَذا الحِمْلَ الثَّقيلَ، وتَتَّخِذِينَ ثَوباً جَميلاً خَفِيفاً فَتَتَحَرَّكينَ بِسُهُولَةٍ؟

ضَحِكَتِ السُّلْحُفاةُ مِنْ جَديدٍ وقَالَتْ لَهُ: آهٍ مِنكَ أَيُّها المُحتالُ، أَتُرِيدُ أَنْ أَنْزِعَ قَوْقَعَتِي ودرعِيَ الثَّقيلَ الذي يَحمِيني مِنْ كُلِّ الطَّامِعِينَ، حَتَّى أُصْبِحَ بَينَ فَكَّيكَ لُقْمَةً سائِغَةً؟

حاوَلَ الثَّعْلَبُ أَنْ يُبَرِّئَ نَفسَهُ مِنْ هَذِهِ التُّهْمَةِ.

فَقَالَتْ لَهُ: قُلْ لي ما اسْمُكَ وسَوفَ أَحْكِي لَكَ حِكَايَةً تَستَفيدُ مِنها، ولا تَنْسَاها فِي حَياتِكَ.

قالَ ضاحِكاً بِمَرارَةٍ: حَتَّى أَنْتِ أَيَّتُها السُّلْحُفاةُ؟

تَعَجَّبَتْ مِنْ رَدِّهِ وقالَتْ: ماذا تَعْني بِعبارَةِ «حتى أَنْتِ»؟

أَجَابَها: الكُلُّ يُريدُ أَنْ يَحكِي لِي القِصَصَ، لَقَدِ امْتَلأَ رَأْسي بِالقِصَصِ، وأَنا أُرِيدُ أَنْ أَمْلأَ بَطْني لا رَأْسي، تَعِبْتُ، تَعِبْتُ، سَأَموتُ مِنَ الجُوعِ.

ضَحِكَتِ السُّلْحُفاةُ بِصَوتٍ عالٍ هَذِهِ المرَّة، وقالَتْ: اسْمَعْني الآنَ جَيِّداً أَيُّها الثَّعْلَبُ المِسْكينُ، لَدَيَّ بَعْضُ حَبّاتِ التُّوتِ البَرِّيِّ المُجَفَّفِ، كُنْتُ قَدْ خَبَّأْتُها لأَيَّامٍ عاصِفَةٍ مِثل هَذِهِ، لَكِنِّي لَسْتُ بِحاجَةٍ إِلَيها لأَنِّي حَالِياً في بَياتٍ شَتَويٍّ. سَأُعْطيكَ إِيَّاها. لَكِنْ عَلَيكَ أَنْ تَسْمَعَ القِصَّةَ التي سَأُخْبِرُكَ إِيّاها، وهي عَلَى أَيَّةِ حَالٍ قِصَّةٌ قَصِيرةٌ جِدّاً.

قالَ لَها عَلَى الفَورِ: نَعَم. نَعَم. إِلَيَّ بِحَبّاتِ التُّوتِ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ.

أَشَارَتِ السُّلْحُفاةُ لَهُ بِرَأْسِها نَحو طَرَفٍ مِنْ أَطْرافِ جِذْعِ الشَّجَرَةِ المُثَلَّثِ، فَهَبَّ نَحوهُ لِيَكتَشفَ مَخبأً صَغيراً داخِلَ الجِذْعِ، مَدَّ يَدَهُ وَأَخَذَ يَجْمَعُ حَبَّاتِ التُّوتِ وكَانتْ كَميَّتُها قَليلةً جِدّاً لا تُسْمِنُ ولا تُغْني مِنْ جوعٍ، فَالْتَهَمَها دَفعَةً واحدَةً.

والتَفَتَ مِنْ جَديد نَحوَ السُّلْحُفاةِ، فَرآها تَضحَكُ عَلَيهِ.

قالَتْ لَهُ: هَيّا، سَأَحْكي لَكَ القِصَّةَ قَبْلَ أَنْ يَعودَ الجوعُ إِلَيكَ مِنْ جديدٍ.

فَقالَ يائِساً: وهَلْ ذَهَبَ الجوعُ حَتى يَعودَ؟ هيَّا قُولي قِصَّتَكِ بِسُرعَةٍ ودَعيني أَرْحَلُ.

قالَتْ لَهُ: قُلْ ما اسْمُكَ؟

قَالَ: بونزي.

ضَحِكَتِ السُّلحُفاةُ بَعدَ ما سَمِعَتِ الاسْمَ وقالَتْ: عَلَى أَيَّةِ حالٍ، لو لَمْ يَكنِ الانقِلابُ عَلَى ظَهري عَسيراً لانقَلَبتُ عَلَيهِ مِنْ شِدَّةِ ضِحْكِي. لَقَد عَرَفتُكَ. أَنْتَ ثَعلَبٌ شَهيرٌ في غابَتنا. لَقَد كانَ أَبوكَ ثَعْلَباً متَفائلاً بكَ كَثيراً، ولَو كانَ حَيّاً لِغَايَة اليَومِ لمَاتَ مِنَ القَهْرِ. ثمَّ عَادَتْ تَضْحَكُ.

فقالَ لهَا: هَا أنْتِ تَسْخَرينَ مِنْ جَديد! أَلَمْ تَشبَعي مِنَ السُّخريَةِ؟!

قَالَتْ لَهُ بَعدَ أَنْ هَدَأَت قَليلاً: عَلَى أَيَّةِ حالٍ، سَأَحكي لَكَ قِصَّةً حَقيقيَّةً حَدَثَتْ لابنَةِ عَمِّي السُّلْحُفاةِ (سوسو)، وَهذِهِ الوَاقِعَةُ حَدَثَتْ عِندَما كُنَّا صَغيرَتَينِ، وَقَد كُنّا في نَفْسِ العُمرِ تَقريباً، لَكنَّها ماتَتْ سَريعاً في الصِّغَرِ، بَعدَ أَن نَزَعَتْ عَنها بَيتَها الثَّقيلَ ـ كَما تُسَمِّيهِ ـ.

وتَابَعَتِ السُّلْحُفاةُ قِصَّتَها مُرَدِّدَةً في كُلِّ مَرَّةٍ: ـ عَلَى أَيِّةِ حالٍ ـ لَقَدْ كُنّا نَعيشُ مَعاً في غَابَةٍ صَغيرةٍ حَيثُ

عاشَتْ مَجموعاتٌ كَثيرةٌ منَ السَّلاحفِ حَياةً سَعيدَةً لعَشَراتِ السِّنينَ. الغابَةُ كانَتْ هادئَةً جداً، فَالسَّلاحفُ كَما تَعلَمُ تَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ شَديدٍ دونَ ضَجَّةٍ.

وفي يَوم رَأَتِ ابنَةُ عَمِّي أَرْنَباً صَغيراً يَقفزُ وَيَثب بحريَّةٍ، تَحَسَّرَتْ عَلَى نَفسِها، وَقَالَتْ:

لَيتَني أَستَطيعُ التَّحَرُّكَ مِثْلَهُ، إنَّ قَوقَعَتي الثَّقيلَةَ هيَ السَّبَبُ، آهٍ لَو أَسْتَطيعُ التَخَلُّصَ مِنْها. فَأَخبَرَتْ سُوسُو أُمَّها أَنَّها تُريدُ نَزْعَ القَوقَعَةِ عَن جِسْمِها.

قَالَتِ الأُمُّ: هَذِهِ فكرَةٌ عَجيبَةٌ، لا يمكنُ أَنْ نَحيَا دونَ بيوتٍ عَلَى ظهورِنا! نَحنُ السَّلاحِفُ نَعيشُ هَكَذا مُنذُ أَنْ خَلَقَنا الله، فَهيَ تَحْمِينا مِنَ البرودَةِ والحَرارةِ والأَخطارِ.

قَالَتْ سُوسُو: لَكنَّني بِغَير هَذِهِ القَوقَعَةِ الثَّقيلَةِ سَأُصْبحُ رَشيقَةً مثْلَ الأَرنَبِ، وسَأَعيشُ حَياةً عاديَةً مثلَ سائِرِ الحَيَواناتِ.

فَقَالَتِ الأُمُّ: هَذِهِ حَياتُنا وطَبيعَتُنا وَشَكلُنا، ولا يُمكننا تَغييرَ شَيءٍ من ذَلكَ.

وتَابَعَتِ السُّلحُفاةُ تَقولُ: عَلَى أَيَّةِ حالٍ، لَقَدْ سارَتْ ابنَةُ عَمِّي سوسو دونَ أَنْ تَقتَنِعَ بكَلامِ أُمِّها، وقَرَّرَتْ نَزْعَ القَوقَعَةِ عَنْ جِسْمِها، وَلَو بِشدَّةٍ وعُنْفٍ. وبَعْدَ مُحاوَلاتٍ مُتَكَرِّرَةٍ، وبَعْدَ أَنْ حَشَرَتْ نَفسَها بَينَ شَجَرَتَينِ مُتَقارِبَتَينِ نَزَعَتْ قَوقَعَتَها عَنْ جِسْمِها، فَانْكَشَفَ ظَهرُها الرَّقيقُ النَاعِمُ. أَحَسَّتِ السُّلْحُفاةُ بِالخِفَّةِ؛ فَحَاوَلَتْ تَقْليدَ الأَرْنَبِ الرَّشيقِ، لَكِنَّها كَانَتْ تَشْعرُ بالأَلمِ كُلَّما سَارَتْ أَو قَفَزَتْ.

حَاوَلَتْ أَنْ تَقفِزَ قَفْزَةً طَويلَةً فَوَقَعَتْ عَلَى الأَرضِ، ولم تَستَطِعِ القِيامَ. هَبَّت رِيحٌ خَفيفَةٌ فَشَعَرَتْ بِالبَردِ، ابْتَعَدَتْ قَليلاً عَنِ الظِّلِّ فَحَرَقَتْها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ، لَجَأَتْ إلى زَاوِيَةٍ رَطبَةٍ تَحتَ شَجَرَةٍ صَغيرةٍ فَاقتَرَبَتِ الحَشَراتُ مِنها، سَارَتْ عَلَى جِلْدِها الرَّقيقِ الحَسَّاس، فَشَعَرَتْ

سوسو بِأَلمٍ شَديدٍ بِسَبَبِ حَرَكَة تِلكَ الحَشَراتِ، كَانَ ظَهرُ السُّلْحُفاةِ مَكاناً فَسيحاً للَدْغِ البَراغيثِ، وَمَصِّ الدِّماءِ مِنها. تَذَكَّرَتْ سوسو نَصيحَةَ أُمِّها ولَكنْ بَعْدَ فَواتِ الأَوانِ.

قَاطَعَها الثَّعْلَبُ بونزي قَائلاً: يَكفي يَكفي! أَرْجوكِ يَكفي. لا تُكْمِلي. لَقَدْ قَطَّعْتِ قَلْبي.

فَقَالَتْ مُسْتَهْزِئَةً: يَا لَكَ مِنْ ثَعْلَبٍ مَاكِرٍ! هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ فِي حَياتي الطَّويلَةِ ـ والسَّلاحِفُ تَعِيشُ عُمراً مَديداً ـ هَذِهِ أَوَّلُ مَرَّة أَرَى ثَعْلَباً رَقِيقَ القَلبِ. يَا تُرَى أَيْنَ تَذْهَبُ كُلُّ هَذِهِ الرِّقَّةُ وأَنْتَ تَفترسُ ضَحَايَاكَ؟! أَوْجَعَكَ لَدْغُ البَراغيثِ ولا يَضيرُكَ أَكْلُ الفَرائِسِ كُلِّها؟!

ثمَّ قَالَتْ: عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، مَا رَأْيُكَ الآنَ يا بُونزي؟ هَلْ نَتَسابَقُ؟

قَالَ الثَّعْلَبُ بِصَوتٍ حَزينٍ مُرهَقٍ: كَفَاكِ سُخْرِيَةً. وَعَلَى أَيَّةِ حَالٍ ـ كَما تُرَدِّدينَ ـ عُودي إلى سُباتِكِ،

وشُكْراً عَلَى التُّوتِ البَرِّيِّ. أَمَّا أَنَا فَسَأَمضي في طَريقي. مَعَ السَّلامَةِ.

قَالَ الثَّعْلَبُ ذَلِكَ ثمَّ مَضَى فِي طَرِيقِهِ نَحوَ وِجَارِ الذِّئْبِ القَرِيبِ دُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ جَوابَ السُّلْحُفاةِ، وسَارَ بِهُدوءٍ مُنْحَنيَ الرَّأْسِ، مَكسُورَ الخَاطِرِ، آمِلاً أَنْ لا يَخذِلَهُ الذِّئْبُ كَمَا تَوَقَّعَتِ السُّلْحُفاةُ.

١٢ ـ في وِجَارِ الذِّئْبِ

سَارَ بُونْزي بِاتِّجاهِ وِجَارِ الذِّئْبِ القَريبِ، وَكَانَ التَّعَبُ وَالجُوعُ قَدْ بَلَغَا عِنْدَه مَبلَغاً عَظِيماً. وَكَما يُقالُ، فَإنَّ الجوعَ كَافِرٌ، فَهوَ يُكَفِّرُ ـ أي يَسترُ ـ كلَّ شَيءٍ جَميلٍ في الكَونِ، يلهي النَّفْسَ عَنْ جَمَالياتِ الحَياة، فَهل يُوْصَى الجَائِعُ بهوايَةٍ يُمارسُها، مِثْلَ الجَري أَوِ التَّسَلُّقِ أوِ الغِنَاءِ تَحتَ مَاءٍ يَنْهَمِرُ، أَوِ القيامِ بِنُزْهَةٍ قُرْبَ ضِفافِ وَاحَةِ الغابَةِ والتَّمَتُّعِ بِرَذاذِ المَطَرِ، أَو بزَقزَقَةِ العَصَافيرِ عِنْدَ تَوَقُّفِ المَطَرِ، وانْقِشاعِ السَّحائِبِ عَنِ الجَوِّ، أَو بِصِيَاحِ الدِّيكِ بَعدَ انْقِشاعِ الظُلْمَةِ عَنِ الصُّبحِ؟!

لا يُمْكِنُ. نَعَم. لا يُمْكِنُ، لأَنَّ الفَرَحَ الحَقيقيَّ لا يَأْتي إلَّا بِانْقِشَاعِ الهَمِّ عَنِ القَلبِ. اسْتَقْبَحَ الذِّئْبُ

زيارَةَ الثَّعْلَبِ بونْزي في هَذا الوَقتِ منَ اللَّيلِ الحَالكِ، لم تُسْعِدْهُ هَذِهِ الزِّيارَةُ المُفاجِئَةُ.

وبالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الثَّعالِبَ والذِّئابَ أَبْناءُ عُمُومَةٍ، فَإِنَّ الذِّئْبَ بَرَمَ شَفَتَهُ السُّفْلَى، وَعَقَدَ مَا بَينَ عَينَيهِ، وَمَطَّ خَطْمَهُ أَكْثَرَ مِمَّا هو مَمْطوطٌ، ثم قَالَ سَاخِراً مُسْتَنْكِراً سَبَقَ لِسانُهُ عَقْلَه: مَا هَذِهِ الزِّيارَةُ التي لا تُسْعِدُ عَدُوّاً ولا حَبيباً، ولا بَعِيداً أو قَرِيباً؟

فَقالَ بُونْزِي: أَجَدٌّ قَولُكَ أَمْ هِزَارٌ؟ مَا لِي أَرَى ابْنَ عَمِّي غاضِباً مِنْ زِيَارتي لَهُ؟ وكَأَنَّ مَنْ زَارَهُ حُمّى فِي يَومِ صَيفٍ قَائِظٍ حَارٍّ!

أَلْقَى بُونزي نَظْرةً خاطِفَةً إلى داخِلِ الوِجَارِ، فَلَمَحَ شَيئاً مِنْ وَرَاءِ الظَّلامِ، فَقَوِيَتْ عَزِيمةُ أَنْفِهِ وأَخَذَ نَفَساً عَميقاً لِيَتَأَكَّدَ ممَّا لَاحَ مِنْ بَعيدٍ.

تَأَكَّدَ الثَّعْلَبُ أَنَّهُ كانَ مُصيباً في اعْتِقادِهِ، فَالذِّئْبُ

يُخفِي بَعْضَ اللَّحْمِ الطَّازَجِ لِوَليمَةٍ مَا، وحاسَّةُ الشَّمِّ عِنْدَ الثَّعالِبِ قَوِيَّةٌ جِدّاً. ومَنْ بِقَدْرِهِمْ مَكْراً وَخِدَاعاً؟!

فَقَالَ لَهُ: يَا سَيِّدَ الغَابَاتِ والبَرَاري وَالمَراعِي وَالجِبالِ والوِدْيَانِ، جِئْتُكَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ لِتُنْقِذَني مِمَّا أَنَا فيه، فَاسْتَقْبَلْتَني بِهَذِهِ الشِّدَّةِ، مَاذا سَتَقولُ عَنَّا الحَيَواناتُ التي تَضْمُرُ لَنا البَغْضاءَ والحَسَدَ، وَنَحنُ أَبْناءُ عُمومَةٍ لا فَرْقَ كَبِير بَينَنا؟!

ضَحِكَ الذِّئْبُ مِنْ قَولِهِ المَاكِرِ، وَمَنْ أَقْدَرُ مِنَ الذِّئَابِ عَلَى كَشْفِ خَدِيْعَةِ الثَّعالِبِ أَبْنَاءِ عُمُومَتِهَا؟!

فَقَالَ لَهُ بِصَوتٍ هَادِئٍ لَطِيفٍ مُبَدِّلاً لَهْجَتَهُ السَّابِقَةَ:

أَكِيدٌ أَنِّي كُنْتُ أَمْزَحُ مَعَكَ، ما بَالُ ابْنُ عَمِّي يَأْتِينا مِنْ بَعْدِ غِيَابٍ؟! لا سَرَّني يَومٌ بِلا رُؤْيَتِكَ، وَلا حَسِبْتُهُ مِنْ عُمري. مَرْحَباً بِكَ في كُلِّ وَقْتٍ وزَمانٍ، لَكِنْ حَبَّذا لَوْ كُنْتَ أَخْبَرْتَني مِنْ قَبْلُ بِمَوْعِدِ تَشْرِيفِكَ لي؛ لَجَهَّزْتُ لَكَ المَكانَ وَالعَشَاءَ اللَّذيذَ.

فَقَالَ بَونزي وَقَدْ أَقْلَقَهُ كُلُّ هَذَا التَّرْحِيبِ بَعْدَ السُّخْرِيَةِ: جِئْتُ عَلَى غَيرِ مَوْعِدٍ، حُبّاً وتَجْدِيداً لِعَهْدِ قَرابَتِنا. أَلَنْ تَدْعوَني لِدُخُولِ بَيتِكَ؟ يَكْفِي أَنْ تَعْزِمَني عَلَى وَلِيمَةٍ بَسِيطَةٍ شَهِيَّةٍ مِنْ حَوَائِجِ الدَّارِ.

أَجَابَ الذِّئْبُ بِلُؤْمٍ ظَاهِرٍ: مَاذا أُخْبِرُكَ يَا بْنَ عَمِّي؟ بَيتي اليَوم أَغْرَقَتْهُ سُيولُ المَطَرِ، وَيَسْتَحِيلُ الجُلوسُ في دَاخِلِهِ. وَأنَا الآنَ أَعْمَلُ عَلَى تَجْفِيفِهِ مِنَ الماءِ. فَاعْذرْ مَا أنا فيه منْ مُصيبة.

ولمْ يَنتظِرِ الذِّئْبُ أَنْ يَسْمَعَ جَوابَ بُونزي، وتَابَعَ بِقَولِهِ: عَسَاك يابنَ عَمِّي أحْضَرْتَ لِي شَيئاً طَيِّباً مِنَ البِلادِ التِّي أَتَيتَ مِنها أو مِنَ المَرَاعي التي عَبَرْتَ فِيْها. إِنَّ انْهِمَاكي بإِنقاذِ مَسْكَنِي الصَّغيرِ البَسِيطِ شَغَلَني عَنِ الصَّيْدِ والقَنْصِ، فَبِتُّ اللَّيلَ جَائِعاً.

أَدْرَكَ الثَّعْلَبُ أَنَّ الذِّئْبَ يَطْرُدُه بِذَلِكَ شَرَّ طَردَةٍ، ويَقْصدُ أَنْ يُبعِدَهُ عَنْ وِجَارِهِ بِطَريقَةٍ ذَكِيَّةٍ مُهَذَّبةٍ، غَير

عَابِىءٍ بحَالِهِ ومَآلِهِ، لَكِنَّهُ بَقِيَ واقِفاً مُتَسَمِّراً عِنْدَ عَتَبَةِ دارِهِ، فَهوَ يَعْلَمُ مِنْ قبلِ أَنْ يَأتيَ أَنَّ الذِّئابَ لا تُحبُّ مُشَارَكَةَ الثَّعَالِبَ في طعَامِها أوْ مَسْكَنِها. ولمَّا يَئِسَ مِنْ مُراوغَةِ الذِّئبِ، لم يَجِدْ بُدّاً مِنْ مُعَاوَدَةِ المَسيرِ.

١٣ ـ القِرْدُ زَيْنُون

فَكَّرَ بُونزي أَنْ يَذهَبَ إلى صَدِيقِهِ القِردِ زَينون حَيثُ يَسْكُنُ في أَعْلَى شَجَرةِ جَوزِ الهِندِ، ومَكانُها قَريبٌ مِنْ وِجَارِ الذِّئْبِ، ولمَا وَصَلَ قُرْبَ الشَّجَرَةِ رَفَعَ رَأسَهُ مُنادِياً بِأَعْلَى ما تَبَقَّى مِنْ صَوتِهِ: يَا عَزيزي القِرْد، هَلْ أَجِدُ عِندَكَ طَعاماً أَسُدُّ بِهِ جُوعِي الشَّديدَ؟

ضَحِكَ القِردُ مِنْ أَعْلَى الشَّجَرَةِ وقَالَ: لَعَلَّكَ تُريدُ أَنْ تَتَعشَّاني؟ هيّا، اصْعَدِ الشَّجَرَةَ لو اسْتَطَعتَ. رَدَّدَها مُقَهْقِهاً بِأَعْلَى صَوتِهِ وَهُوَ يَعلَمُ أَنَّ الثَّعالِبَ لَيسَتْ ماهِرَةً بِتَسَلُّقِ الأَشْجارِ.

قَالَ بونزي: عُذْراً مِنْكَ أَيُّها القردُ العزيزُ، لَيسَ فِي تَاريخِ الثَّعالِبِ ما يُفيدُ بِأَنَّها اعْتادَتْ عَلَى تَناوُلِ القُرودِ

في وَجباتِ العَشاءِ ولا حتى الغَداءِ، ولو أَرَدْتُ ذَلِكَ فَلَنْ أَفْعَلَ. أَنتَ ـ كما تَعلَمُ ـ صَدِيقِي.

قَالَ القردُ: هَا. أَنَا صَديقُكَ ما دُمْتُ سَاكِناً في أَعْلَى الشَّجَرةِ.. وسَأَبقَى مُحافِظاً عَلَى صَداقَتِكَ. لَكِنْ مِنْ فَوق وَلَيسَ مِنْ تَحت.

قَالَ بُونزي: بُوركتَ أَيُّها الصَّدِيقُ الجَميلُ، مَا رَأْيُكَ إِذَاً بِأَنْ تُسْعِفَني بِطائِرٍ لَذيذِ الطَّعْمِ، طَرِيِّ اللَّحْمِ، جَميلِ المَنظَر، شَهيِّ المَأكَلِ.

هُناكَ طيورٌ كَثيرةٌ تَعيشُ فَوقَ الأَشْجَارِ العَالِيةِ، وَمَنْ مَثْلكَ فِي بَراعَةِ التَسَلُّق، أَو تُلْقِي لِي بِبَعْضِ بَيضِها لِيَكونَ عَشائي وَسَميرَ مَسَائي.

قَالَ القِرْدُ غاضِباً: وَمَنْ أَخْبَرَكَ أَيُّها الثَّعْلَبُ يَا مُدَّعِيَ صَدَاقَتي، ويَا صَاحِبَ الفَروِ النَّاعِمِ أَنِّي صَيّادُ عَصافِيرَ؟! أو أَنِّي أَخُونُ طَيراً مِنْ أَصْدِقائِيَ الطُّيورِ

وأَعْبثُ بِبَيضِهِ أَو أَسْرِقُ مِنْ عُشِّهِ؟! ومَاذا سَيَقولُ عَنِّي مَعْشَرُ القِرَدَةِ لَوْ فَعَلْتُ ذَلِكَ؟

فَكَّرَ بُونزي بِحِيلةٍ، لَكِنَّهُ صَرَفَ عنْها النَّظَرَ في الحَال، لأَنَّهُ ما مِنْ حِيلَةٍ مِنْ حِيَلِهِ نَجَحَتْ حَتَّى السَّاعَة، ولا مَفَرَّ مِنَ الاسْتِسْلامِ، لَكِنْ كَيفَ يَسْتَسْلِمُ للجوعِ؟ وهَلْ أَمامَ الاسْتِسْلامِ هَذا غَير المَوتِ؟

ثُمَّ رَسَمَ عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسامَةً، فَهوَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ المَهزومَ إِذا ابْتَسَمَ أَفْقَدَ الشَّامِتَ لَذَّةَ الفَوزِ، كَما أَنَّ الجَزِعَ عِنْدَ المُصيبَةِ، مُصيبَةٌ أُخْرَى.

الثَّعَالبُ خُطَبَاءُ الفَضِيلَةِ

عَادَ يَمشِي وَيَسْتَعيدُ بَعْضَ القِصَصِ القَديمةِ التي رَواها لَهُ جَدُّهُ، وَمِنْها حِكايَةُ الدِّيكِ كَرْكَر والعَداوَةُ المُتَأصِّلةُ بَينَ الدِّيَكَةِ والثَّعَالِبِ.

هَذا الدِّيكُ الَّذي قَرَأَ كُتُباً كَثيرةً وبَنَى مَكْتَبَةً كَبيرةً. دَرَسَ عَالَمَ الدَّجاجِ وتَاريخَ الدَّجاجِ وحَضارَةَ الدَّجَاج.

كانَ كركرُ عالِماً خَبيراً واشْتَهَرَ فِي غَابَتِهِ والغَاباتِ الأُخْرَى، فَجاءَتْ وُفودُ الدَّجَاجِ تُريدُ أَنْ تَتَعَلَّمَ مِنهُ، فَازْدَحَمَتِ الغابَةُ بالدَّجَاجِ القَادِمِ مِنْ كُلِّ الغَاباتِ، وانْزَعَجَتْ حَيواناتُ الغَابةِ مِنْها، فَتَنادَتْ لاجْتِماعٍ عَاجِلٍ.

قالَتِ الزَّرافَةُ: لمْ أَعُدْ أَحْتَمِلُ، الدُّيوكَ تَصيحُ بِلا انْقِطاعٍ، أُريدُ النَّومَ.

قالَتِ السُّلْحفاةُ: البَيضُ في كُلِّ مَكانٍ، لم يَعُدْ هُنالِكَ مُتَّسَعٌ أَجْلسُ فيهِ.

قَالَتِ النَّعامَةُ: أَمَّا أَنَا فَمُصِيبَتي كَبيرةٌ، كُلَّما وَضَعْتُ رَأسِي فِي حُفْرةٍ نَقَرَتْ وَجهِي الكَتاكيتُ الصَّغيرةُ.

قَالَتِ الغَزالَةُ: وأَنَا الرَّشِيقَةُ المَشْهورةُ بِالقَفْزِ والرَّكْضِ، لمْ أَعُدْ أَسْتطِيعُ التَّحَرُّكَ، أَخْشَى أَنْ أَتَعَثَّرَ بِدجاجةٍ هنا أو دِيكٍ وكتكوتٍ هُناكَ.

قالتِ البُومَةُ بِحَزْمٍ: يَجِبُ طَردُ جَميعِ الدَّجَاجِ القادِمِ مِنْ خارِجِ غَابَتِنا، وَإِذا كَانُوا يُرِيدونَ الدِّيكَ كركرَ فَلْيَأْخُذوهُ مَعَهُمْ.

قَالَتِ الحَيواناتُ مُؤَيِّدَةً: نَعَم. نَعَم. لِنَطْرُدْهُمْ مِنْ غَابَتِنا، لِنَطْرُدْهم.

هُنا قَالَتِ الثَّعالبُ: مَا أَقْسَى قُلوبَكُم! أَنْتُمْ لا تَعْرِفونَ الرَّحْمَةَ. تُريدونَ طَرْدَ حَيواناتٍ مُسالِمَةٍ لأَنَّها أَرَادَتْ أنْ تَتَعلَّمَ؟ تُريدونَ أَنْ تُبْقوا جُهَلاءَ طِيلَةَ حَياتِكُمْ؟

عَلِمَ الدِّيكُ كَرْكَرُ بِهَذَا النِّقَاشِ، فَنَادَى جُموعَ الدَّجاجِ وقَالَ: إِنَّ غابَةً تُصْبِحُ فِيها الثَّعالِبُ خُطباءَ الفَضِيلَةِ وسائِرِ الحيواناتِ عَدُوَّةٌ لِلْعِلْمِ، لَمَكانٌ لا يَصْلُحُ لِلسَّكَنِ، لِذا يَجِبُ عَلَينا أَنْ نُغادِرَ الغَابَةَ فَوراً.

لَكِنَّ الثَّعْلَبَ بونزي لَمْ تَكُنْ تُعجِبُهُ هَذِهِ القِصَّةُ، وَمِثْلُها مِثْلُ مُعْظَمِ القِصَصِ التي كانَ يَرويها لَهُ جَدُّهُ الذي كانَ يُريدُهُ أَنْ يَكونَ مُحْتالاً مِثلَ صاحِبِ اسْمِهِ.

حَدَّثَ بُونزي في نَفْسِهِ قائِلاً: لَقَدْ بَدَأَ الجوعُ يَقْضي عَلَيَّ، وَحِيلَتي الوَحِيدَةُ أَنْ أَقْفِزَ نَحوَ الأَغْصانِ القَريبةِ فِي هَذِهِ الشَّجَرةِ، أَنْزِعُ عَنْهَا مَا تَبَقَّى مِنْ أَوْرَاقِها الطَّرِيَّةِ المَغْسولَةِ بالمَطرِ، آكُلُها رَغْمَ مَرارةِ طَعْمِها،

فَمَرارَةُ الطَّعْمِ أَفْضَلُ مِنْ طَعْمِ المَوتِ جُوعاً، وَغَداً عِنْدَما يَطْلُعُ النَّهارُ وَتَهْدَأُ العَاصِفَةُ سَأَعودُ إلى بَيتي وعَشِيرَتي. لَقَدْ تَعِبتُ، تَعِبْتُ.

وفِيما كانَ بونزي يَأْكُلُ وَجْبَتَهُ «الشَّهِيَّةَ» ويُفَكِّرُ نَادِماً بِمَغَامَرتِهِ وَرِحْلَةِ قَنْصِهِ الفَاشِلَةِ، مَرَّ بِقُرْبِهِ الفَأْرُ نَفْسُهُ الذي رَآهُ فِي بِدايَةِ اللَّيلةِ.

فَقالَ الفَأْرُ بَعْدَ أنْ رَأى الثَّعْلَبَ يَأكُلُ أوْراقَ الشَّجَرِ:

غَريبٌ! هَلْ بَدَّلَتِ الثَّعالِبُ مِنْ أُسْلوبِ حَياتِها؟ وَغَيَّرتْ طَرِيقَةَ مَعِيشَتِها، فَلَمْ تَعُدْ تَأْكُلُ اللَّواحِمَ وأَصْبحَتْ نَباتِيَّةً؟

وسَمِعَ الثَّعْلَبُ الفَأْرَ وَهُوَ يَحْمدُ اللهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ العَظيمَةِ، لأنَّ هَذا التَّغْييرَ الكبيرَ سَوفَ يَجْعَلُ الفِئْرانَ فِي أمَانٍ وسَلامٍ مِنْ غَدْرِ الثَّعالِبِ وَمَكْرِها.

ناداهُ الثَّعْلَبُ قائِلاً:

يا أَخِي الفَأْر، يا أَخِي الفَأْر، أَلَمْ تَسْمَعْ بِهَذا التَّغييرِ مِنْ قَبْل، أَلَمْ تَرَني في بِدايَةِ اللَّيلِ ولم أَقْتَرِبْ مِنْكَ، وَتَرَكْتُكَ تَمْضِي في طَريقِكَ بِسَلام، لَقَدْ غَيَّرنا وبَدَّلْنا مِنْ طِباعِنا وَمبادِئِنا، لِنَعيشَ جَميعُنا بِأَمنٍ وسَلامٍ، وَنَحنُ ـ مَعْشَرَ الثَّعالِبِ ـ نُحاولُ أَيْضاً أَنْ نُشَجِّعَ كُلَّ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ عَلَى أَنْ تَحْذوَ حَذْوَ الثَّعالِبِ بِهَذا القَرارِ، وتَوقِّع مَعَنا عَلَى مُعاهَدةٍ نَتَجَنَّبُ فِيها الْتِهامَ الفَرائِسِ عَلَى أَنْواعِها.

قَالَ الفَأْرُ مُقْتَنِعاً بِهذا الكلامِ:

بارَكَ اللهُ بِكَ يا أَخي الثَّعْلَب، إِنَّهُ لَقرارٌ حَكيمٌ، وَلطالَما حَلمْتُ بِذلِكَ، وتَمنَّيتُ أَنْ يَحدُثَ، وكُنتُ أَرْجو بَدلاً مِنْ أَنْ أَكونَ فَأْراً صَغيراً آكُلُ الحَشراتِ والعناكبَ الحيَّةَ، أَنْ يَقتَصِرَ طَعامي عَلَى النَّباتاتِ، وأَنْ أَكونَ مِثلَ الغِزْلانِ رَشاقَةً ودَلالاً وَجَمالاً.

قالَ لَهُ الثَّعْلَبُ بِصَوتٍ مَليءٍ بِالعَطْفِ:

اقْتَرِبْ يا صَدِيقيَ الجَميل وَجَرِّبْ هَذِهِ الأَوراقَ الشَّجَريَّةَ الطَّريَّة. أَنْتَ لا تَسْتَطيعُ تَسَلُّقَ الأَشْجَارِ والحُصولَ عَلَيها. خُذْ بَعضَ هَذِهِ الأَوراقِ مِنْ يَدي.

اقْتَرَبَ الفَأْرُ مِنْ مَصيرِهِ المَحْتومِ، وهو لا يَدْرِي أَيَّ مَصيرٍ سَيَلقَاهُ عَلَى يَديِّ الثَّعْلَبِ المُخَادِعِ، لَكِنَّهُ وَقَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيهِ قَالَ:

مَا رأْيُكَ يَا عَزيزي أَنْ تُلْقِيَ لِيَ الأَوراقَ وأَنْ أَلتَقِطَها مِنْ بَعيدٍ؟

فَقالَ الثَّعْلَبُ بِصوتٍ يُوحِي بِطِيبةِ قَلْبِ صَاحِبِهِ: أَمَا زِلْتَ تَحْذَرُ مِنِّي؟ لا تَخَفْ. هيَّا اقْتَرِبْ وكُلْ مِنْ يَدي أَوْرَاقاً طَريَّةً هَنيَّةً.

قَالَ الفَأْرُ:

أَلْقِها لي يا ثَعلَبُ، أيُّها الصَّديقُ الجَميلُ، فَالحَذَرُ مَطْلوبٌ في كُلِّ حالٍ، أُفَضِّلُ البَقاءَ بَعيداً عَنْ أَيِّ خَطَرٍ، وَقَدِيماً سَمِعْتُ بَعْضَ الرُّعَاةِ والزُّرَّاعِ يَقولونَ:

«تَصادَقْ مَعَ الذِّئابِ عَلَى أَنْ يَكونَ فَأْسُكُ مُسْتعِدّاً دَائِماً».

عِنْدَها لمْ يَسْتَطِعِ الثَّعْلَبُ بُونزِي أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ مِنْ شِدَّةِ الغَضَبِ وَالجُوعِ مَعاً، فَكَشَّرَ عَنْ أَنْيابِهِ وَتَهَيَّأَ لِلقَفْزِ عَلَى الفَأْرِ المِسْكِينِ.

وَمَا أنْ رَأى الفَأْرُ بَريقَ أَسْنَانِه وَهِيَ تَلْمَعُ مُخْتَرِقَةً حُجُبَ الظَّلامِ حَتَّى ولَّى هَارِباً مُخْتَفِياً بَينَ الحَشائِشِ إلى أَنْ غابَ عَنْ نَظَرِ الثَّعْلَبِ تَمَاماً، فَرَاحَ الثَّعْلَبُ بُونْزِي يَندُبُ حَظَّهُ وَيَقولُ: «حَتَّى أَنْتَ أَيُّها الفَأْر؟!».

ثمَّ أَحْنَى رَأْسَهُ وَنَظَرَ إلى الأَرْضِ قَائِلاً:

«لَقَدْ أَخْطَأَ أَبي بِالفِعْلِ عِنْدَما سَمَّاني بِهَذا الاسْمِ التَّعِيسِ، فَمَا نَفَعَني اسْمُ بُونْزي، ولمْ تَنْفَعْني حِيلَتي، مِسْكينٌ أَنْتَ يَا بونزي».

ومُنذُ ذلِكَ اليومِ؛ أَصْبَحَتْ قِصَّةُ بُونزِي الثَّعْلَبِ

حِكَايةً تَرْويها أَجْيَالُ الثَّعالِبِ والفِئْرانِ والسَّلاحِفِ والأَرَانبِ وكُلُّ الحَيَواناتِ.

وَصَارَ بُونزِي الثَّعْلَبُ مَثَلاً سَائِراً مِثْل بُونِزي الإِنْسَانِ.

وجاءَ في الأَمْثالِ:

«إِذا لمْ تَكُنْ تَعْلَمُ أَيْنَ تَذْهَبُ، فَكُلُّ الطُّرُقِ تُؤَدِّي إلى هُنَاكَ».

«النهاية»

المحتويات

١ ـ مَطَرٌ.. مَطَرٌ.. مَطَرٌ.. ..... ٥

٢ ـ قِصَصُ الثَّعالبِ الطَّرِيْفَةِ ١٣

٣ ـ الثَّعالِبُ وَالذِّئَابُ ١٧

٤ ـ اسْمٌ حَقِيقِيٌّ ٣١

٥ ـ قِصَّةُ بُونْزي المُحْتالِ ٣٧

٦ ـ الثَّعَالِبُ تَشِيْخُ سَرِيْعاً ٤٩

٧ ـ البُومَةُ القَرْنَاءُ الكَبِيرَةُ ٥٥

٨ ـ فَأْرٌ صَغِيرٌ وَأَرْنَبٌ مَيِّتٌ ٦٣

٩ ـ دِيكٌ وأَرْنَبٌ ٧٥

١٠ ـ صَوْتُ البُومَةِ المُتَوارِيَةِ ٧٩

١١ ـ شَجَرَةُ الجَوْزِ والصَّخْرَةُ المَلْساءُ ٨٧

١٢ ـ في وِجَارِ الذِّئْبِ ١٠١

١٣ ـ القِرْدُ زَيْنُون ١٠٧
١٤ ـ المَشْهَدُ الأَخِيرُ ١١١
الثَّعَالبُ خُطَبَاءُ الفَضِيلَةِ ١١١